أفياء

مقالات في العلم والدعوة والمنهج

أ. د. عمر بن عبد الله بن محمد المقبل

الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم



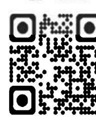
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المقبل، عمر بن عبدالله بن محمد.
أفياء./ عمر بن عبدالله بن محمد المقبل.-ط١.
المذنب، ١٤٣٩هـ.
١٨٤ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.
ردمك: ٤-٠٧١٥٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١- الدعوة الإسلامية. أ.العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣٩/٧٥٢٩

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض
طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة
هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+
ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧
www.obeikanretail.com



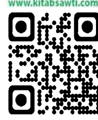








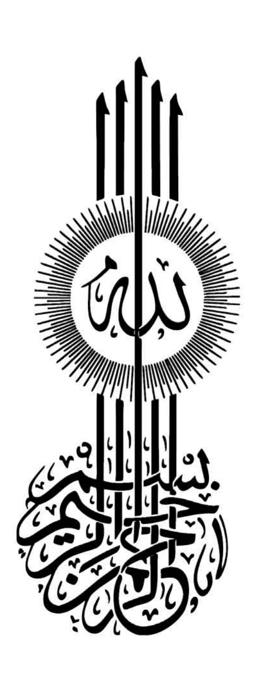











الله
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيسرني أن أقدم للقراء الكرام هذه المجموعة من المقالات، تنتظم موضوعات مختلفة في العلم والدعوة والمنهج؛ كتبت في أوقات متفرقة، ومناسبات متنوعة، لتَنْضَمّ إلى شقيقاتها التي صدرت سابقًا في جزءين حَمَلا اسم (مرافئ).

ولا يخفى أن طبيعة المقالات تحتّم الحديث بأسلوب مركّز، قد يكون غرض الكاتب لفت النظر إلى قضيةٍ ما تحتاج إلى دراسة موسّعة، دون الدخول في التفاصيل، وقد يكون الغرض التركيز على العلاج فحسب.

وإني لأرجو أن يكون هذا الكتاب مقبولًا عند الله، ثم عند إخواني وأخواتي من القراء الكرام، الذين أرجو ألا يبخلوا على أخيهم بتسديد وتقويم أنتفع به، فالقراء هم الرصيد الحقيقي للكاتب، والمرآة التي يبصر بها قصوره.

عمر بن عبدالله المقبل

Omar1427@gmail.com

جوال (تليغرام): 0555154491

التفكير بالموجود

١٣/ ٢/ ١٤٣٦هـ

المشــاهَد أن لغةَ التذمُّر من الزمن، ومِن الواقع المعيش - ســواء على المســتوى الفردي أو المجتمعي- ترتفع بشكل مستمر، ساعد على ذلك: مواقع التواصل الاجتماعي، التي صارت متَنَفَّسًــا للتعبير عن الظروف التي يمرّ بها أكثــرُ الناس، خاصة ما يتعلق بالأقــدار المؤلمة، والأحوال الاقتصادية الســيئة. وبثُّ الشــكوى قد يُخَفِّف مــن الألم، على حد قول الشاعر:

وَلا بُدّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذي مُروءَةٍ

يُواســيِكَ أَوْ يُسْــلِيكَ أَو يَتَوَجَّعُ

لكنْ ثمــةَ طريقةٌ مجرّبة في التعاطي مع الظروف التي تمرّ بالإنســان، وهي ما يمكن تسميته (التفكير بالموجود)، وهو أسلوب ناجِع ومجرّب، وقد طبّقه العقلاءُ من المسلمين وغيرهم.

وفي القصة المشهورة عن عروة بن الزبير (ت:٩٤هـ) ما يوضح المراد بشــكل أدقّ؛ فقد ابتُلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وقتٍ واحدٍ بفَقد ولدٍ له، ركَلَهَ حصانٌ، فمات، وسرى داءُ الآكِلــة إلى رجله، فقُطعت! فأتتــه قريشٌ والأنصار يعزونــه في ابنِه ورِجله؛ فقال له عيســى بن طلحة بــن عبيدالله: أبشر يا

أبا عبدالله، قد صنع الله بك خـيرًا، والله ما بك حاجةٌ إلى المشي. قال: ما أحسن ما صنع اللهُ إلي! وهبَ لي سبعةَ بنين، فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحدًا، وترك سـتةً، ووهب لي سـت جوارح، فمتعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحدة، وأبقى لي خمسًـا -يدين، ورجلًا، وسمعًا، وبصرًا- ثم قال: اللهم، لئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيتَ، ولئن كنتَ ابتليتَ لقد عافيتَ[1].

فتأمل في كلمات عروة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذْ نَسـب المفقود إلى الموجود؛ فوجد أنه في خير عظيم، فلئن ذهب ولدٌ فلقد أبقى له سـتة، ولئن ذهبت جارحة فلقد أبقى اللهُ له الكثير.

لـو أردنا أن نُعبّر عن هذه المصيبة عـلى طريقة المتذمّرين، لوجدنا أنه سيقارن نفسَه بمن لم يفقد أي جارحة، وبمن لديه أولاد أكثر منه، أو من لم يبتلوا بفَقْد أحدهم! وهذا كله لا يُجدي على صاحبه شيئًا، فلن يُعيد هذا التذمرُ عَجَلة الزمن، ولن يعيد له ولدَه ولا قَدَمَه، مع زيادةٍ في الهمّ والغمّ قد تُذهـب الأجر، وتَجلب الوزر -إن صحبه تسـخط- وربما تبع ذلك مشاعر سلبية -من القلق والاكتئاب- تزيد الطينَ بلّة.

إن هذا الأسـلوب في التفكـير التفكير بالموجود يحتـاج إليه الأبُ والزوجُ حين يكثر الإلحـاحُ من داخل البيت على شراء الكماليات بدافع التقليد والمحاكاة للآخرين، وذلك بذِكر مـا عندهم، وفقَدَه الآخرون، وليس العكس؛ مستشـعرًا قولَه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو يربي أمّتَه على التعامل مع ما يراه أحدُنا من تميّز غيرنا علينا في أمر الدنيا: «**انظروا إلى من أسـفل منكم، ولا تنظروا إلى مـن هو فوقكم، فهو أَجـدَر ألا تزدروا نعمةَ الله**

(١) ينظر: (التعازي) للمدائني (ص٥٦).

عليكم»[١]، وهذا كلُّه ليس تهربًا من النفقة، ولكن لكبح جماح الرغبة في الشراء لمجرد الشراء والتقليد، وليس الحاجة.

وهذا الأســلوب في طريقة التفكير، إنما هو مفيد في التعامل مع أقدار الله المؤلمــة؛ أما في باب التذكير والتنبيه عــلى الفضائل الدينية؛ فلا بد أن نعكس الأســلوب إلى: (التفكير بالمفقود)، ومن الأمثلة التي تُقرِّب هذا المعنى: أن أحد الإخوة أراد أن يتحدث عن فضل صلاة الجماعة؛ فقرَّر أن يغيِّر طريقةَ الطرح المعتادة مع أهميتها ولكن هذه المرة بأسلوب (التفكير بالمفقود)، فذكر الفضائلَ المتعلقة بحضور الجماعة، وما الذي يخسره من لم يحضرها؟ ومن جملةِ ما ذَكر:

إذا كان الذي يحضر الجماعةَ يَفضُل صلاةَ الفَذِّ بسبع وعشرين درجة؛ فهذا يعني أن الفذ (يَفقِد) مئة وخمسًا وثلاثين درجة يوميًّا، وقرابة الألف درجة أسبوعيًّا!

وإذا كان الذي يحضر الجماعةَ ينالُه هذا الفضل: «**من غدا إلى المسجد، أو راح**[٢]**؛ أعــدّ اللهُ لــه في الجنة نُزُلاً**[٣] **كلما غــدا، أو راح**»[٤]، فكم نُزُلًا (يفقِد) المتخلفُ عنها يوميًّا؟[٥].

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٩٦٣).

(٢) أصل غدا: خرج بغدوة؛ أي مبكرًا.
وراح: رجع بعشي، وقد يســتعملان في الخروج مطلقًا توسعًا، وللحديث روايتان يتبين بهما أن المراد بالغدوّ: الذهاب، وبالرواح: الرجوع. انظر: شرح القسطلاني (٢/ ٣٣).

(٣) النُّزُل: ما يهيأ للضيف. انظر: كشف المشكل (٣/ ٤٠٢).

(٤) رواه البخاري (رقم٦٦٢)، ومسلم (رقم٦٦٩).
النُّزُل: ما يُهيّأ للضيف. انظر: كشف المشكل (٣/ ٤٠٢).

(٥) وهذا الفضل فقط لمن غدا أو راح! قال ابــن بطال: «فما ظنك بما يُعِدُّ له، ويتفضل عليه بالصلاة في الجماعة واحتساب أجرها والإخلاص فيها لله تعالى!» شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢/ ٢٨٥).

وإذا كان الذي يحضر الجماعة «**لم يخطُ خطوة، إلا رُفِعت له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة**»[1]؛ فكم سيفوت المتخلِّف عنها مِن رفعةٍ للدرجات وحطٍّ للخطايا؟

وهكذا، يمكن تفعيـــل هذين النوعين من التفكير في نظرتنا لســـائر أنماطنـــا في الحياة، فأنا واثق أن النتائج ســـتكون بـــإذن الله أكثر إيجابية، وأعظم نفعًا.



(١) رواه البخاري (رقم٦٤٧).

لماذا لا تَندب الحسين؟

١٩/ ٢/ ١٤٣٦هـ

ســؤال قد يبــدو غريبًا! لكن قد تــزول هذه الغرابــةُ إذا علمتَ أن مِثل هذا السؤال ســؤالٌ حقيقيٌّ يطرحه بعضُ الشيعة كلما مرّت مناسبةُ عاشــوراء، وجرى حوارٌ مع عامة المســلمين وخاصتهــم -من العلماء وطلاب العلم في زمنٍ تيسّرت فيه المحاورةُ والمناقشــةُ من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

والأعجبُ من هذا: حين يســتنكر بعضُ الشيعة صومَنا لعاشوراء! لأنه بزعمهــم أن الصوم ينافي ما ينبغي أن نكون عليــه من الحزن لِمَقْتلِ البِضعةِ النبويةِ؛ السِّبطِ الشريفِ أبي عبدالله الحسينِ بنِ عليٍ بن أبي طالب، عليه وعلى والده وآل بيته الســلام والرضوان، الذي قُتِلَ شــهيدًا ســنة إحدى وســتين هجرية (٦١هـ)، وعلى مَنْ قتله، وأعان على قتله لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين.

وما دام الســؤالُ المذكورُ قد طُرح؛ فليكــن جوابنا عنه، وحوارُنا فيه بعلم وعدل وعقل، من خلال الأسئلة الآتية:

عند المسلمين نصوصٌ صريحةٌ صحيحةٌ في الحثّ على صوم عاشوراء؛ شكرًا لله على نجاة موســى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وليس فرحًا بمقتل الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما يلبِّس بعضُ الشيعة هداهم الله للحق، فهل يتركون الصومَ الذي أمرَ به جدُّ الحســين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن مصيبة مقتل الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقعتْ في اليوم نفسه؟!

وأهلُ الســنةِ لا يَجِدون تعارضًا بين المناســبتين، بل يقولون: إن مِن كرامة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأبي عبدالله الحســين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يكون يومُ استشهاده في يوم عاشــوراء، وهو اليوم نفســه الذي نجّى اللهُ فيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وغرّق فرعون؛ ليجتمع للمســلمين فيه عبادتان: عبادةُ الشــكر وعبادةُ الصبر، وليقترن ذكرُ استشهاده بذكر أحدِ أولي العزم من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كما يجمع اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الوقت شــخصًا أو نوعًا من النعمة التي تُوجب شكرًا، أو المحنة التي تُوجِب صبرًا، كما أنّ السابعَ عشر من شهر رمضان كانــت فيه وقعةُ بدرٍ، وفيه كان مقتلُ عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأبلغُ من ذلك أن يوم الإثنين في ربيــع الأول مولد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه هجرته، وفيه وفاته أيضًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والعبدُ المؤمن يُبتَلى بالحســناتِ التي تَسُرُّهُ، والسيئاتِ التي تَسُوءُه في الوقت الواحد؛ ليكون صبَّارًا شكورًا، فكيف إذا وقعَ مثلُ ذلك في وقتين متعددين من نوع واحد؟!

وهنا مِن حقّ الشيعي الباحث عن الحقيقة أن يتساءل: متى بدأ اللطمُ والشقُّ المتعلقُ بمقتل الحســين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؟ لن يُسعفَه التاريخُ إلا بأن هذا لم يبدأ إلا بعد سنوات كثيرة.

ســؤال آخر: كلُّ الشيعة يقولون: إن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل من ابنه، وقد قُتل شهيدًا مظلومًا، وهو خارجٌ لصلاة الفجر في رمضان، فلماذا خُصّ الحسينُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالندب دونه؟

ولماذا لم يَفعل أحدٌ من شــيعة عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا من ذلك، وهو الذي قُتل قبل ابنه بنحو عشرين سنة؟

ولنرجع إلى الــوراء قليلًا: مات النبـــيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أعظمُ من أصيب المســلمون بموتـــه، فلماذا لم يُقِـــم الصحابـــةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليه مأتمًا وعويلًا؟ ولماذا لم يبادر العبـــاسُ وابنُه وعليٌّ وأكابرُ آل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك الوقت إلى اقتراح مثل هذا، وعلى سبيل الاقتراح على الأقل؟

وحـين فُجـع النبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوفـاة جـدة الحسـن والحسـين، أم المؤمنـين خديجـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وفُجـع بمقتل عمّه حمـزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لماذا لم يَصنـع لهـم مأتمًـا، ويجمـع النـاس والنسـاء؛ ليُظهِـروا مشـاعر الحـزن عـلى هـذه المصائـب الجليلة؟!

الجواب باختصــار: لأن الله لم يأمر عند نــزول المصائب إلا بالصبر والاسترجاع، فقد ربّاهم القرآنُ على هذا، بل وهيأهم لمثل هذه المصائب، إذ قــال تعــالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

ومن الأســئلة التي مِن حق الشيعي أن يتســاءل عنها: ماذا فعل هذا اللطمُ للأجســاد، والشـــق للثياب؟ هل أزال كدَرَ المصيبة؟ أم أعاد لنا الحسينَ وآل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ أم قضى على الظالمين لهم؟

ولــه أن يعيد النظرَ، ويتســاءل أيضًا: ونحــن في عصر الاتصالات والتواصل الفضائي والتقني: ماذا نتوقع أن يقول شخصٌ يريد الدخول في الإســلام إذا رأى أمثالَ هذه المشــاهد؟ فهل نظن -وهو يرى أطفالًا وشــبابًا صغارًا تســيل الدماءُ من رؤوســهم من آثار ضرب السيوف والسكاكين- هل نظن أن مثلَ هذا المشهد سيرغّبهم في دخول الإسلام؟ على الأقل في فهم الشيعي الذي يعتقد أن مذهبه الذي عليه هو الحق، وما سواه هو الباطل!

وختامًا: فقد يَخفى على كثيرٍ من الشيعة، أن عددًا من أئمة السنّة نصّوا على أنّ تَقصّد الاحتفال بهذا اليوم، وإظهار الفرح فيه؛ بدعةٌ منكرةٌ، يقال هذا ليتبين أن الخطأَ خطأٌ، والبدعةَ بدعةٌ مهما كانت جهة صدروها.

رزقنــا الله بمنّــه وكرَمه لــزومَ الحق الــذي أنزله على نبيــه وخليله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



حاجز المهنة

٢٥/ ٢/ ١٤٣٦هـ

الانتساب إلى مهنةٍ مِن المهَن -كالطب، والهندسة، والتعليم، والزراعة، وغيرها- قديمٌ قِدَم دبيب أقدامِ البشر في الأرض.

لقد كان الغالبُ على المنتسبين لمهنَتِهم الاكتفاءَ بها، والانشغالَ بتطوير ذاته، أو البقاء من رسومها على ما يحقِّق رزقًا له ولأولاده، فلما جاء الإسلامُ نقلَ أهلَه إلى فضاءٍ أرحب، وميادينَ أوسع، جعلتِ الهمّ الأكبرَ الذي يدورُ حولَه الإنسانُ هو همّ الإسلام، مهما كانت مِهَنُهم، وعلى اختلاف مستوياتهم، فلا يحجزهم عن حملِ رسالةِ الإسلام كونهم ليسوا طلاب علمٍ، بَلْه علماء بالشريعة.

بل امتد حملُ هذا الهمّ إلى مَنْ ينشغلون عادةً بخاصةِ أنفسهم، أو أناس وقعوا في بعض المعاصي، فسُجِنوا، ويحضرني هنا مثالٌ مرّ بي في ترجمة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول: ما سمعتُ كلمةً منذ وَقعتُ في الأمر الذي وقعتُ فيه؛ أقوى من كلمةِ أعرابي كلَّمني بها في رَحبة طَوق، قال لي: يا أحمد، إن يَقتلك الحقُّ متَّ شهيدًا، وإن عشتَ عشتَ حميدًا، قال: فَقوّى

قلبـــي[1]، ولما تكلّم الإمامُ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن خوفه من فتنة الســـوط، وأنه يخاف ألا يصبر! سمعه بعضُ أهلِ الحبس، فقال: لا عليكَ يا أبا عبدالله، فما هو إلا سَــوطان، ثــم لا تدري أين يَقع الباقــي! فكأنه سُرِّي عنه[2].

وتمتد هـــذه النـــماذجُ المشرقةُ إلى عصرنـــا؛ لنرى شـــبابًا أفاضل من تخصصـــات غير شرعيـــة، تمثّلوا هـــذه الحقيقـــة؛ فســـعوا إلى توظيف تخصصاتهـــم، والمهن التـــي ينتمون إليهـــا في نشر الخـــير، والدعوة إلى الله، ولســـانُ حـــالِ أحدِهم يقـــول: لعلّي أكـــون من أهل هـــذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومـــن الأمثلة القريبة: ما فعله بعضُ الشـــباب -في رمضان الماضي- من تســـخير موقع التواصل الاجتماعي (ســـناب شات) للتعريف بمكة المكرمة؛ من خلال حملة سُـــخِّرت للنقل الحيّ لشعائر التراويح، ومشهد الطواف، وذلك ترتَّب عليه إسلامُ عددٍ ممن كان يتابع ذلك البث، ومنهم من لم يكن يعرف مكة المكرمة مِن قبْل، فقادته تلك الجموعُ التي رآها في العشر الأواخر إلى السؤال عن الإسلام؟ ولعلّهم اهتدوا بسبب ذلك.

لم يكن ذلك الشـــابُّ والفريقُ الذي معه -ممن تبنّوا الفكرة- مِن حمَلَة الشـــهادات الشرعية، بل كانوا من ذوي التخصصات التقنية، لكنه حبّ الخير، والرغبة في الدعوة إلى الله باســـتخدام هذه الوســـيلة، فلله درّهم، وبارك فيهم، وأكثر مِن أمثالهم.

---

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص٤٢٢).

(٢) السابق: (ص٤٢٧).

وفي القطاع الصحي، تَقرُّ العينُ حين تَرى مَن انبرى لدعوةِ الوافدين -من مســلمين وغيرهم داخل القطــاع الصحي، فهــذا طبيب، وآخر صيدلي، وثالث ممرض، كلهم يتســابقون إلى التعاون مع مكاتب التوعية الدينية في المستشفيات، فنفع الله بجهودهم كثيرًا، وأنقذ اللهُ بهم فئامًا من النار.

ونجد بعضَ الموفَّقين مــن معلمي اللغة الإنجليزية، يبادرون قبل أن يُسْــألوا، بادَروا بالتواصل مع مكاتب توعية الجاليات؛ ونُصْبُ أعينهم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فــوالله لأَنْ يُهدَى بك رجلٌ واحــدٌ خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَم**»(١)، فيجتهدون في الدعوة، وإيصال رسالة الحق إلى من ضل عنه، وهمُّ أحدِهم: كم إنسانًا سيدخل الإسلامَ بسببي؟!

وأعرفُ أحدَ الشــباب ممن يعمل في قطاع المقــاولات، جعل دعوة الجاليات همّــه الأكبر، فلما حمل هــذا الهمّ اجتهد في اغتنام كل وســيلةٍ لدعوتهم، ويقول: أتمنى ألا أموت حتى يُســلِم على يديّ أكثر من ٣٠٠ ألف كافر، وأظن أن الذين أسلموا على يديه حتى الآن فاقوا عشرين ألفًا.

إنها دعوةٌ لكل مســلم أن يَحمل رسالةَ الإســلام ما استطاع إلى ذلك ســبيلًا، وأن يغتنم ما يسّره اللهُ من وسائل لخدمة الدين، فإن كَسِل، فاللهَ اللهَ أن يُؤتَى الإسلام من قِبَله! ولا يكن صادًّا عنه بسوء أفعاله وتصرفاته: «**تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك**»(٢)، والله يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ.

---

(١) رواه البخاري (رقم٢٩٤٢) واللفظ له، ومسلم (رقم٢٤٠٦).

(٢) رواه البخاري (رقم٢٥١٨)، ومسلم (رقم٨٤) واللفظ لمسلم.

دُرّةُ الحُفّاظ

١/ ٣/ ١٤٣٦هـ

مخطئ مَن يظنّ أن الانتفاع التام بقراءةِ تراجم الأكابر يحصل بالقراءة العابرة!

إن تاجَ تلكم التراجم: هي التي يجمعُ أصحابُها بين العلم والعمل، وتطبيقِ ثمرة العلم، تلمَس ذلك وأنت تقرأ أخبارَهم، فتهُبّ عليك نسماتُ صِدقهم من خلال تلك الأسطر والورقات، فكيف بمن عاش معهم، أو لقيَهم؟!

ومِن هؤلاء الكبار الذين تستحق تراجمهم أن تُقرأ أكثر من مرة: الحافظُ العالم العامل المحدّث عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي (ت: ٦٠١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

لقد عَرف كثيرٌ مِن طلاب العلم هذا الحافظ بـ (عمدته الحديثية) الشهيرة، التي جمع فيها نحوًا من أربع مئة حديثٍ في الأحكام من الصحيحين، وبعضِ أفرادهما، وعرَفوه بحفظه واطّلاعه، وبعضِ

(١) له ترجمة مستوعبة في (ذيل طبقات الحنابلة) لابن رجب (٣/ ١-٥٦) ومنها أفدتُ في هذه الملتقطات من ترجمته.

مصنفاته الســـائرة، لكن ماذا عن الجانب العمَلي في حياته؟ الذي يُترجِم ما كان عليه من علمٍ مُزكّى، يسير فيه على جادّة السلف الذين جمعوا بين العلم والعمل، ولعلي ألخص بعضَ مواقفه تلك في هذه الوقفات:

- دفعُ العُجب: بلغ الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ منزلـــةً عليّة في الحفظ، وله في ذلك قصص كثيرة، وهذا قدْر يشـــترك معه فيه بعضُ العلماء ممن ســـبَقه، ولحقه، إلا أن الموقف الذي يُترجِم الجانبَ العملي عنده، أنه قيل له: لِمَ لا تقرأ الأحاديثَ من غير كتاب؟ فَقَالَ: إنني أخاف العُجْب!

- اســـتفيدوا من غيري: قال أحدُ مترجميه: «إذ صار عنده طالبٌ يَفهم شَيْئًا؛ أمره بالسفر إِلَى المشايخ بالبلاد»، وبعضُ الناس اليوم إذا بلغ في العلم منزلةً قد يتضايق مـــن ذهاب بعض تلاميذه لغيره! وهذا ليس مـــن النصح في شيء -خاصةً إذا ذهب الطالـــبُ ليتلقى علمًا لا يتقنه شيخُه الذي انتقل عنه-.

- مجالسُ تليّن القلـــوب: عُرف الحافظُ بقرب دمعتـــه، وكثرة بكائه في مجالس الحديث، وكان له -إبان إقامة درســـه بعد الجمعة في دمشق- مجالسُ يغشـــاها خلْقٌ كثيرٌ، وكان إذا قرأ الحديثَ بكى، وأبكى، فمن حضر هذه المجالس لا يكاد يفارقها؛ لكثرة ما يحصل له من لين قلبه.

ولما دخل مصر -بعد أن أُخرج من دمشق- عقد مجالسَه الحديثية فيها، فكان النَّـــاسُ يبكون حَتَّى غُشي على بَعْضهم، حتى قال بعضُ المصريين: مَا كنا إلا مثل الأموات حَتَّى جاء الحافظ، فأخرجنا من القبور!

ما أحوج الناس وطلاب العلم إلى هذه السكينة التي تغشى هذه المجالس، ويخرج منها أهلُها وقد لانت قلوبُهم!

ولقد تذكرتُ -وأنا أقرأ هذه المواقف- مجالسَ حضرتُها، وسمعتُ أضعافها -مما لم أحضره- لشيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز- رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ كانت دموعُه تسيل من تأثره بآية، أو تعليقه على حديثٍ من أحاديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقد كانت تلك الدموع تليّن قسوةً في القلوب، ويستشعر معها الجالسُ في الدرس شيئًا من معاني السكينة التي تغشى تلك المجالس! ومَن ينسى بكاءه عند سماعه لحادثة الإفك؟ أو قصة بيعة العقبة؟ أو توبة كعب وصاحبيه؟!

لا أدري لمَ ربط بعضُ أهل العلم بين قوة الدروس العلمية وخلّوها مما يليّن القلب، ويستدر الدمع؟! آلجفافُ علامةٌ على قوة الدرس علميًّا؟!

مِن المؤكّد أن الدروسَ ليست على درجة واحدة من حيث طبيعتها، ولا الشيوخَ في منزلة واحدة، لكن خلوّ دروس الشيخ التي تبلغ المئات من أمثال هذه المعاني؛ شيء محزن!

- الحفاظ على رأس المال: مما اشتهر به الحافظ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعُرف عنه: «حفاظه الشديد على وقته، فلا يكاد يضيّع شيئًا من زمانه بلا فائدة»، وفي عصرنا تجدّدت على طالب العلم مشتّتاتُ الوقت، ومضيّعاتُ الزمن، فما أحراه أن يتضرع لربه، ويسأله الإعانةَ على اغتنام الوقت، والسلامةَ من انفراط زمانه بلا فائدة!
- الاستمرار في تلقين القرآن للعامّة: وهذا من أعاجيب ما ذُكر في

ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه لم يترك ذلك مع بلوغه في الإمامة في الدين شـــأوًا عظيمًا، تَحمِل مثلَه على الانشـــغال بأمور أخــرى، بحيث يتولى هذه المهمة -مهمة التلقين- من هم في طبقة تلاميذه.

بعضُ شـــبابنا -وفقّهم الله- ممن هم متأهلون لتعليم القرآن وتلقينه، وليست لديه موانع تســـتحق التأخر عن هذا الشرف، إذا عُرِض عليهم التدريس في حلقات التحفيظ؛ يبدون أعذارًا كثيرة، بعضُها لا يقوم على ساق، أفليس لهم في هؤلاء الأكابر قدوة؟!

- مشـــاركة العامَّة همومَهم ومصائبَهم: فإنه حين كان بمصر، وقع فيها غلاء، فكان يُؤثِر بعشائه لياليَ عدة ويَطوي[1].

ومثل هذه المواقف تؤثّر في العامّة، وتزيد من رصيد العالم في نفوسهم أكثر من دروسه ومواعظه المجرّدة من التطبيق.

- احتسابه على المنكرات: يقول مترجمو الحافظ: «وكان لا يرى منكرًا إلا غيَّره بيده أو لسانه، وكان لا تأخذه في الله لومةُ لائم»، وتلك -لعمر الله- مِـــن زينة العالم؛ أن يُرى محتسِـبًا، يُترجـــم غيرتَه على محارم الله بالإنكار بحسب القُدرة والاســـتطاعة، وبها يحقِّق المقصودَ الشرعيَّ.

وإن العامّــــة لا يزالون يحفَظون للعالم قَدرَه ومكانتَه في قلوبهم؛ ما دام معروفًا بينهم بالاحتســـاب والإنكار، وألا يَقصُر دعوتَه على أحد طرفي النجاة: (الأمر بالمعروف) فحســـب، بل يجمع بينهـــما، ويجتهد في تحقيق المصالح الشرعية في أمره ونهيه.

---

(١) الطَّيَّانُ: الطَّاوِي الْبَطْنَ. وَيُقَالُ طُوِيَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا جَاعَ، وَضَمُرَ صَارَ كَالشَّيْءِ الَّذِي لَوِ ابْتُغِيَ طَيُّهُ لَأَمْكَنَ. فَإِنْ تَعَمَّدَ لِلْجُوعِ قَالَ: طَوَى يَطْوِي طَيًّا. مقاييس اللغة (٣/ ٤٢٩).

■ وصية مجرّب: ولتكن آخر الوقفات مع سـيرة هـذا العلم الماجد[1]، هذه الوصية التـي صدرت عن تجربة وذوق، وهـي وصيّة تُعرَض مضامينُها لكثير مـن أهل العلم، حيث يقول: «إن مَن رزقه الله خيرًا مِن عملٍ أو نورِ قلب، أو حالـةٍ مَرْضيَّة في جوارحه وبدنه؛ فليحمد الله عليها، وليجتهد في تقييدها بكمالها، وشكر الله عليها، والحذر من زوالها بزلة أو عثرة.

ومن فقَدَها فليكثر من الاسترجاع، ويفزع إلى الاستغفار والاستقالة، والحزن عـلى ما فاته، والتضرع إلى ربه، والرغبة إليه في عَودها إليها، فإن عادتْ وإلا إليه ثوابها وفضلها إن شاء الله تعالى».

رحم الله الحافظ عبدالغني، وأكثَرَ في علماء المسلمين من أمثاله، وجمعنا به في دار كرامته.



---

(١) الماجِدُ: الحَسَنُ الخُلُقِ، السَّمْحُ. القاموس (ص٣١٨).

مشروع (العالِم المتفرّغ لنشر العلم)

٧/ ٣/ ١٤٣٦هـ

مما يستوقف القارئ في ترجمة أبي عبيد القاسم بن سلّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما رواه الخطيب البغدادي في (تاريخه) أنه حين صنّفَ أبو عبيدٍ كتابه (غريب الحديث) عُرِضَ على الأمير عبدالله بن طاهر، فاستحسنه، وقال: إن عقلًا بعث صاحبه على عملِ مثلِ هذا الكتاب لحقيقٌ ألا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش، فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر[1].

وقريبٌ من هذا، قولُ عبدِالله بن المبارك -حين كان يتّجر في البزِّ-: لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا محمد، مَن الخمسة؟ فقال: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابنُ عُليّة، قال: وكان يخرج فيتّجر إلى خراسان، فكلما ربح شيئًا أخذ القوتَ للعيال ونفقة الحج، والباقي يَصِل به إخوانَه الخمسة.

وابنُ المبارك -أحدُ الأئمة- كان مستغنيًا بتجارته، ولو شاء لتفرّغ بقيّة حياته للتحديث والفتيا، لكنه آثر أن يستمر في تجارته؛ ليقوم بكفاية إخوانه من العلماء الذين سمّاهم.

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٢).

إنها نـــماذج توحي بأن فكـــرة كفايةِ العـــالِمِ، وتفريغـــه لتعليم العلم وبثّـــه في الأمة كانـــت حـــاضرةً في نفوس أهـــل الفضل مـــن الأمراء والعلـــماء؛ لما لذلك من الأثر العظيم في العـــالم وطلابه، وفي الأمة كلها.

والمشـــاهَد أن عددًا كبيرًا مـــن العلماء، تمضي زهرةُ شـــبابه وبداياتُ حياتـــه العلمية بـــين الرغبة في الطلـــب، وهمِّ توفير لقمـــة العيش التي يســـتغني بها عن الخلق، حتى إذا ما نضج، واشـــتد عـــودُه، واحتاجت الأمةُ لعلمـــه؛ إذا بقواه البدنية قد كلّت بســـبب الوظيفـــة، التي وإن لم تُثْقـــل كاهلَ البـــدن في كل الأحيان، إلا أنها تُشـــغِل الذهنَ على الأقل.

لقد حدّثنا التاريخُ عن علماء كُثر، لم يستطيعوا التفرغَ لبثّ العلم حتى اســـتعفوا من وظائفهم، منهم: القاضي والعالم المالكي الشهير أبوبكر بن العربي، حيث قال عنه مترجمه: «ثم اســـتعفى عن القضاء، فأعفي، وأقبل على نشر العلم وبثه»[1]، فتأمل في قوله: «وأقبل على نشر العلم وبثّه»، إذْ لم يأتِ إلا بعد الاستقالة.

وهذا يقودنا إلى الإجابة عن السؤال الذي يطرحه بعض الفضلاء: إذًا مَنْ يتصدى للقضاء؟ وللتدريس في الجامعات؟ ومدارس التعليم العام؟

والجواب أننا حين ندعو إلى تبنّي (مشروع العالم المتفرّغ) فهذا بالتأكيد يعنـــي أنه لا يفرّغ أيُّ أحـــد، بل يُفرغُ من عُرِف بالعلـــم وطلبه، وبثّه في الناس، وشـــهرة مثل هؤلاء لا تخفى، ويبقى في تلك الوظائف المذكورة من ليس بدرجة هؤلاء العلماء.

---

(١) (الصلة في تاريخ أئمة الأندلس) لابن بشكوال (ص١٤٤).

وعلى المؤسسات المانحة أن تسعى في إيجاد أوقافٍ تليق بوظيفة هؤلاء العلماء، وأن تستشـــير كبار أهل العلم في الضوابط والشروط التي ينبغي أن تتوافر فيمن يســتحق ذلك، ويسبق هذا: وضع الشروط التي تضبط الأمر، وتحميه من الانفراط، أو التســوّر عليـــه، فيأخذه من ليس أهلًا، ويحرمـــه من هو أهلٌ، على أن تكون هذه الأوقاف تغني أولئك المتفرغين وتكفيهم، وتراعي ما يليق بحالهم علميًّا واجتماعيًّا، وبما يرفع المنّة عنهم، فطالب العلم، بله العالم لن يرضى بأن يعيش مقتاتًا على مالٍ من شخص بعينه -مهما كان قدره-، بل إذا كان ضمن مشروع وقفي كبير، فهو أدعى لقبوله، وتاريخ المدارس العلمية[1] أكبر شـــاهد على عراقةِ هذا النوع من المشروعات الوقفية.

لقد كنتُ أتساءل منذ مدّة ليست بالقريبة: ماذا لو وجد في بلادنا علماء متفرغون لنشر العلمِ وبثّه؟ بحيث لا تخلو منهم أوقات اليوم الخمسة، كما كان حال بعض العلماء قبل انتشار الوظائف الحكومية وغير الحكومية؟

ولو نظرنا في نمـــوذج قريبٍ، لأَثَرِ تفرّغ العالم عـــلى إنتاجه المكتوب والإنتاج المتمثل في الطلاب؛ فهو لعلَمٍ من أشهر علماء البلاد -في القرن الماضي-: شـــيخِ مشـــايخنا العلامةِ عبدِالرحمنِ بنِ ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:١٣٧٦هـ)، فقد كان يجلـــس لطلاب العلم في غالب أوقات اليوم؛ لأســـباب من أهمها: أنه كفي مؤنة رزقه، فتخـــرج به علماء كبار، نفع الله بهم الســـاحة العلمية، منهم: شيخنا ابنُ عقيل (١٤٣٢هـ)، والشيخُ ابن بسّـــام (ت١٤٢٣هـ)، وشـــيخنا ابنُ عثيمين (ت١٤٢١هـ) وغيرهم،

(١) ينظر في تاريخ كثير منها: (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي (ت٩٢٧هـ).

رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى جميعًا، وهذا مما يزيدنا قناعةً بأهمية المبادرة والمسارعة في هذا المشروع العظيم.

واليومَ في بلاد الهند وبعض بلاد الإسلام من هذا النوع من العلماء كثير، صاروا -بسبب تفرغهم- مقصدًا لطلاب العلم، يسافرون إليهم، ويقرأ الطالب عندهم في شـــهر ما لا يقرؤه عند غيرهم في ثلاثة أو خمسة أشهر.

لئن كانت الكفايةُ في المعيشة في زمنٍ مضى تحصل بقليل من المال؛ فإن الحال اليوم مختلفة، بسبب الغلاء المتزايد، وكثرةِ متطلبات الحياة، وازديادِ مساحةِ التواصل مع الناس بدنيًّا وتقنيًّا، وسهولةِ السفر والتنقل من وإلى العلماء وطلاب العلم الكبار، فمراعاة ذلك مهمة، ويحســـن أن ينظر في توفير السكن الذي يؤوي قاصدي هذا العالم من طلاب العلم.

إن حقًّا على أهل الثـــراء الأخيار أن يبادروا بإطـــلاق هذا النوع من المشروعات، فهو من أعظم المشروعـــات وأجلّها، والأثرياءُ -وهم كُثُرٌ بحمـــد الله- أولى بتفريغ هؤلاء العلماءِ، وأحـــقُّ بالحرص من أهل الفن والكرة عـــلى تفريغ الفنانين واللاعبين، وبالمبالغ الطائلة ســـنويًّا، لأجل اللهو واللعب!

وبعدُ: ففي الســـاحة علماء وطلاب علم كبار، لو فُرِّغوا لبثّ العلم، وكُفوا مؤنة الرزق؛ لصاروا قبلةً لطلاب العلم من أقطار الدنيا، ولســـان حال هـــؤلاء العلماء: لا شيء أحبُ إليّ من نـــشر العلم، والتصدي لبثّه، ولكن... فمنْ ينال شرف السبق، وعظيم الأجر؟



مواقف في الطائرة (١ / ٢)

١٣/ ٣/ ١٤٣٦هـ

مما يُقال، ويُؤثَر من الحِكَم: «السـفر يُسفِرُ عن أخلاق الرجال» ولئن كان هذا يَظهر في الرحلات الخاصة، التي يجتمع فيها عددٌ قليلٌ في سيارة واحدة، وتمتد رحلتُهـم بضعةَ أيام؛ فماذا عن رحـلات الطائرات التي يجتمع فيها عددٌ كبيرٌ في سـويعات مؤقتة، لا يختارهم الإنسانُ، مع تنوعٍ عجيبٍ في مشاربهم وثقافاتهم! كما يظهر هذا جليًّا في الرحلات الدَّولية.

لعل هذا النوع من السـفر يكشـف عن ثقافات وقِيَمٍ لدى الركاب، ويظهر ذلـك واضحًا في طريقةِ تعاملهم، وفي سـلوكهم في أثناء انتظار الركـوب في الطائرة أو بعد تبوّئهم مقاعدَهـم فيها، ويظهر في اغتنامهم لأوقاتهم، وفي غير ذلك.

ثمّة مواقـفُ أو صورٌ تتكرر في أمثال هـذه الرحلات، قد يكون في ذِكرها والتعليق عليها شيءٌ من الفائـدة، خصوصًا وكثيرٌ من الناس قد تمرُّ به، فلعلها تكون عونًا على استثمارها.

ومن تلكم المواقف التي وقعت لي، أو شاهدتها بنفسي:

الموقف الأول: في رحلـةٍ دوليةٍ تمتد قرابة سبع ساعات، أيقظني صاحبي قبيل الفجر من أجل المبادرة للوضوء قبل ازدحام دورات المياه استعدادًا للصلاة، ومما لفت النظر، ونحن ذاهبون للدورات: مررنا بالمصلى الموجود في الخلف، فإذا بامرأة تصلي، دخلنا، وخرجنا من وضوئنا، وما زالت المرأةُ تصلي! فإذا بها إحدى المضيفات! علَتْنا الدهشةُ، وغَشِيَنا شيءٌ من الإكبار لهذه المرأة!

هنا رأى صاحبي اهتبالَ هذه الفرصة ليُثني على عملها، ويدعو لها بالثبات، وأن يرزقها اللهُ عملًا آخر أبعد لها عن مواطن الرجال، فكان تأمينُها يَصِل للسمع من مسافة ليست بالقريبة.

إنه موقفٌ يكشف لك أن في هؤلاء الإخوة والأخوات العاملين في هذه المجالات مَنْ يحمل بين جنبيه قلبًا طيبًا، وتدينًا جيدًا، وإن كان مظهرُه قد لا يوحِي بذلك، لكن قد يكون اضطرّه طلبُ المعاش إلى مثل هذه الوظيفة التي لا تخلو من محاذير، خاصة في العنصر النسائي -وهذا ليس تبريرًا! بل هو توصيف للحال-، فما أجمل إحسانَ الظن! واغتنامَ الفُرَص في الدعاء لهم، وتذكيرهم بالأسلوب المناسب.

الموقف الثاني: في إحدى الرحلات الدولية لفت نظري حالُ راكِبَين: أحدهما بيده كتاب يقرؤه، وآخر يقلّب طرْفه في سقف الطائرة، ومتابعةِ الغادي والرائح من الركّاب ومضيفي الطائرة! لم تنتهِ مدّة الرحلة -ومدتها قرابة ساعتين ونصف الساعة- إلا وقد أنهى صاحبُ الكتاب كتابَه، وصاحبُنا ما زال على حاله! وما أكثر أشباهَه!

إنهما نموذجان يحكيان أثَر ثقافةِ اغتنام الوقت، واستثماره بالمفيد،

وهذا لا يعني أن نطلب مِن الناس أن يكونوا جميعًا قرّاءً! ولكن من الغبن البيّن أن تمضي الســاعاتُ دون فائدة، فإن لم يكن للمسلم ميل للقراءة في الكتاب؛ فليقرأ شيئًا من القرآن تشهد له به تلك المواضع -وقد تيسر حملُ القرآن بواســطة هذه الأجهزة بشكل لم يَســبق له مثيل- أو ليغتنم ذلك بركعتين، أو بالدعاء، فدعاء المســافر له ميزة؛ لعل دعوة في تلك الأجواء تُفتح لها أبوابُ الســماء، أو بالتســبيح والتهليل والتحميد والتكبير، أو يغتنمه بالتفكير للإســلام أو مصالح المســلمين، أو بغير ذلك من صور الاغتنــام، ومَن كان الهمُّ عنــده فلن يعدم حيلةً، ولن يعدم وســيلةً من وسائل اغتنام الوقت، وما أكثرها! إن التربية على اغتنام الوقت في النافع المفيــد ثقافةٌ تبدأ من الصغر، حيث المحضن الأول للتربية: البيت، الذي يتلقى فيه الأبناءُ دروسًا عمليةً في أمورٍ شتى، لعل هذا من أهمها.

وللحديث صلةٌ إن شاء الله، بمواقف أخرى.



مواقف في الطائرة (٢ / ٢)

١٩/ ٣/ ١٤٣٦هـ

سبق أن ذكرتُ في الجزء الأول من هذا المقال -مواقف في الطائرة (١/ ٢)- موقفين، وأتمم في هذا المقال بعضَ المواقف التي أرجو أن يكون في ذكرها عظةٌ وعبرةٌ.

الموقف الثالث: أقلعت الطائرة -في العام الماضي ١٤٣٥هـ- من مطار دبي متجهةً إلى مطار القصيم، وكان المتوقَّع وصولها في غضون ساعتين تقريبًا، لكن حين اقتربت الطائرةُ من مطار القصيم، كانت السماء ملبّدةً بالغيوم، والضبابُ نزل إلى مستوى قريب من الأرض، وكان قائد الطائرة يحاول الهبوط مدةً ليست بالقليلة، فلم يستطع! قابلَ هذا الهبوطَ ارتفاعُ وتيرةِ القلق لدى عدد كبيرٍ من الركّاب -بسبب الأحوال الجوية التي نمرُّ بها- فلُغة العيون لا تَكذِب، وقسماتُ الوجوه تتحدّث، وهذه وتلك أصدق مِن أيِّ حديث، وأبلغ من كل لسان!

تلتفتُ يمنةً ويَسرةً؛ فترى الوجوه -على اختلاف أجناسها وأحوالها- تتفق على لغةٍ واحدة: هي لغة الجسد... هي لغة الفطرة... ولم أجد في تلك اللحظات لغةً أصدق من تلك اللغة -لغة الفطرة-، التي تستشعرُ

معها أن كلَّ الأسـباب انقطعت، وكلَّ الوسـائل قد فَقَـدت فاعليتَها وجدواها، فلم يبقَ للروح إلا أن تتوجّه بنداءِ الفطرة: يا الله، يا الله، يخفقُ بها القلبُ، ويتحرك بها اللسـانُ، والإنسان يشعر أن الله يسمعه، ويعلم حالَه، ويُدرك معاناته!

إنهـا لحظاتٌ إيمانيةٌ عجيبـةٌ، لا يمكن وصفها! لحظـات يُدركُ فيها الإنسانُ عظيمَ أثر التوحيد، وأثرِ الفطرة حين تَسلم من الملوِّثات!

تأمّل الفرق بين قلـبٍ يتوجّه لربه في مثل هذه الحـال، ويناديه نداءَ الغريق في لجّةِ البحر، وبين من يستغيث بالولي الفلاني أو الشيخ الفلاني! إنها حـالٌ مؤلمة -والله- ويبلغ معها الأسـى مبلَغَه حـين ينحطُّ هؤلاء المسـتغيثون بغير الله إلى دَرَكٍ أسـفل من حال المشركين، الذين قال الله عنهـم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥]، فهم مع شركهم لا يَدعون غير الله في الشدة، فكيف بمنتسبٍ للإسلام؟!

إنهـا لحظاتٌ يُدرك فيها المؤمنُ شـيئًا من معـاني قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقـرة: ١٨٦]، ويستشعر فيها معنى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد: ٤].

لم أتذكر في هــذه الأثناء إلا شـيئين: تقصيري في حـقّ ربي، وذريةً صغارًا أخـاف عليهم الضَّيعة! في مشـاعر حاولتُ فيهـا تجديد عبادةِ حسـن الظنّ بالله، مع مشـاعرَ أخرى تذكرتُ فيها كم هي كبيرةٌ قلوبُ آبائنا وأمهاتنا! ولهَجَ لسـاني بترديد قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[الإسراء: ٢٤]!

وقلتُ في نفسي: إن قلبَك الذي تذكّر ذريتَه في هذه الحال، هو نفســه قلبُ أبيك وأنت صغيرٌ بل وأنت كبير، فكيف هو قلبُ الأمّ يا ترى؟ ثم انتزعتُ نفسي من هذا الخوف والقلق العارض؛ لأقول: يا هذا، إن ربك أرحم بـــك وبذريتك من رحمتك بأولادك، ورحمـــةِ والديك بك! فالزم الدعاء، وأكثِر من اللهج بالذكر والثناء.

لم يقطع هذهِ المشاعرَ إلا صوتُ أحدِ ملاحي الطائرة حين أخبرنا أننا سنعود إلى مطار الملك فهد بالدمّام؛ لأنه أقرب مطار يمكننا النزول فيه؛ انتظارًا لما تسفر عنه الأحوال الجوية في مطار القصيم، وبقينا أكثر من تسعين دقيقة داخل الطائرة، في حالٍ اختلط فيها السرورُ بالحزن، والصفاءُ بالكَدَر، فالسرور بانقشاع الغمّة وهبوطنا بسلام في الدمّام، والكدرُ حين رفض الطاقم نزولنا إلى المطار -لنتدبر أمرنا- لاعتباراتٍ نظامية.

أقلعت الطائرةُ متّجهة إلى مطـــار القصيم، وقائدُ الطائرة يقول: إذا لم يتيسر النزول في القصيم؛ فستعود الطائرةُ إلى دبي، حيث وجهتها الأولى، ولا خيار غير هذا! هنا ساوَرَنا القلق -لكن بشكل أقل مما سبق- بسبب عدم رغبتنا في رجوعنا إلى دبي؛ لأن هذا يعني بقاءَنا نصفَ يومٍ على الأقل هناك، وسيترتب على ذلك تَبعات لا تَخفى.

عدنا مرةً أخرى إلى الدعاء والتضرع بأن ييسّر اللهُ النزول -على الرغم من بقاء الغيوم والضَّباب لكن بشـــكل أخف-، وتـــمّ الأمرُ بحمد الله، ونزلنا وكأننا وُلِدنا من جديد، بعد أن تلقّينا درسًا إيمانيًّا عظيمًا، عِشنا فيه ألوانًا من المشـــاعر، وذكّرَنا مصيرًا نغفل عنه كثيرًا، هو بحال هذا السفر أشـــبه، فما نحن ههنا إلا في محطة مؤقّتة، ننتظر متى يأتي أجلُنا لننتقل إلى

محطّتنا المقبلة وهي الحياة البرزخية- ثم إلى المحطّة النهائية، في دار الجزاء، جعلها اللهُ جنانًا من الفردوس، لي ولوالديّ ومشايخي، وأحبابنا، ومن له حقٌّ علينا.

وأنــا أُحدّث بهذا الموقف أحدَ أحبتي؛ حدّثنــي أن موقفًا مقارِبًا لهذا -بل أشــدُّ- وقع له؛ اضطربت فيه الطائرةُ، واضطربت معها مشــاعرُ الركّاب، وسادت مشاعرُ الذهول والقلق على الركاب، إلا أن ثمة راكبًا كأنه يعيش في عالَمٍ آخر، فسُئل عن سرّ هذه الطمأنينة التي يعيشها؟ فقال: الحمد لله! فإني لا أتذكّر أنّني ظلمتُ أحدًا من الناس، وما بيني وبين ربّي، فإني إن متُّ أفضيتُ إلى مَن وسعت رحمتُه كلَّ شيء! الله أكبر! نِعم العُدّةُ للموتِ هذه: سلامةٌ من حقوق الخلق، وحسنُ ظنٍّ بالله.

إن علينا ألا ننتظر مثل هــذه الدروس -التي نكرهها بفطرتنا- حتى نعود إلى الله، بل علينا أن نســتقيم على الطريــق، ونتخفّف من الذنوب، فبئس الزادُ هي، ومن أشــدها: ظلم الخلق في أعراضهم وأموالهم، حتى إذا جاءنا أجَلُنا؛ كان إحسانُ الظنِّ حينها في محلِّه.

وفي الجملة، فأمثال هذه المواقف يســتفيد منهــا العاقلُ في تصحيح المســار، وتقويم النظر، ورحم اللهُ ابنَ عيينة الذي كان يتمثل بهذا البيت كثيرًا:

إذا المــرءُ كانـتْ لـه فِـكـــرةْ

ففـي كـلِّ شـــيءٍ لـه عِــبرةْ



اسمُ مستعار

٢٥/ ٣/ ١٤٣٦هـ

دأَبَ بعضُ الشــعراء والكُتّاب والمغرّدين على الكتابة باسم مستعار في المنتديات ومواقع التواصل؛ بغية الســلامة مــن النقد اللاذع في أول التجارب، أو خوفًا من الفشل، أو لغير ذلك من الأسباب، وهذا مقبولٌ ومفهوم إذا كان الإنســانُ يريد أن ينشر بعضَ القصائد أو المقالات ذات البُعــد الاجتماعي أو التربوي، لكن ما الذي يدعــو مَنْ يتكلم في قضايا الأمة الكبرى، أو يقوم مقامَ مَن يوجّه الآخرين لذلك؟!

إن حساســيةَ الموضوعِ، أو جرأةَ الفكرة لا تحْتملُ التخفّي، ولا يُقبل فيها التســتُّر في هذه المقامات، فمن نصّبَ نفســه لهذه الميادين؛ فعليه أن يكون شــجاعًا، ويتحمل تَبِعةَ كلمته، فالكلمة أمانةٌ، والقيادةُ العلميةُ أو الفكريةُ تبعةٌ ومسؤوليةٌ عظمى؛ لا يمكن أن تُربط بشخصيات مجهولة!

وبعضُ الناس يهوّن من ذلك بقوله: الأهمّ هنا هو الفكرة، وهذا ليس بدقيق؛ فمعرفة المتحدِّث -الذي نَصب نفسه للتوجيه- لا تَقلُّ أهميةً عن معرفة حقيقة فِكره، وفي معرفة الاسم فوائد تختصر كثيرًا من السجالات التي لا يخلو منها هذا النوع من الأطروحات.

والغالب أن مَن يكتب، وينشر باسم مستعار، سيعيش مختفيًا، ويكتب مختفيًا، ويموت مختفيًا! فيذهب ما يطرحه -إن كان مفيدًا- ويُنسب إلى مجهول! ومَن ولجَ عالم المخطوطـات؛ أدركَ ما قيمة المخطوط المجهول عند أهل الاختصاص!

إن مِـن أخطر مواضع هذا النوع من (التسـتر) حينـما يَنبري أناسٌ للحديث في القضايا الكبرى والمعقّدة، ذات الأبعاد الشرعية أو الفكرية أو السياسية، أو بها جميعًا، فينصب نفسَه خَلْفَ معرّف على مواقع التواصل؛ ليوجّه الشبابَ، ويَصوْغ عقولَهم، وهم -لفرط حماسهم- ينساقون، ولا يَسألون عن اسـمه، ولا عن تاريخه العلمي أو الفكري أو السياسي، بل يروّج هؤلاء المتستّرون مقولةَ حقٍّ يُراد بها تمرير بعض الأفكار الغالية أو الجافية، ثم يقول: دعك من اسمي، وانظر إلى كلامي!

وممـا قد يَخفى عـلى بعض الشـباب -الذين ينجرفـون خلف هذه المعرّفات المجهولة- أنها قد تُدار بأيدٍ اسـتخباراتية محترفة، لديها أجندة معيّنة للتغرير بالشـباب والفتيات، ودَفْعهم إلى مواطنَ ملتهبةٍ، أو أماكن اشتعلت فيها نارُ الفتنة، وربما ظهرت بصورٍ تَستدرُّ العواطف، وتستهوي الناظرَ لها؛ فيقعون فريسةً وهم لا يشعرون.

ولئن كان التخفي باسم مستعارٍ مقبولًا في قضايا الأدب، أو الاقتصاد؛ فلا يمكـن قبولُه في قضايا الشرع والفتيا، وقضايـا الأمّة المصيرية، فالله تعالى حينَ أمرَ بالسؤال عند المشكلات؛ أمر بالرد إلى أهل العلم المعروفين به: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾[النســاء: ٨٣]، ورحم الله عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «إن العلم لا يَهلك حتى يكون سِرًّا»(١)، ومن صور الاســتسرار به: الكتابة في هذه الموضوعات باسم مستعارٍ مجهولٍ.

إن الكتابة بالاســم الصريح تعني: تحمّل المســؤولية، وأمانةَ الحرف والكلمة، بل وأدعى لاحترامه، وتقدير وجهــة نظره مِن قِبَل المخالفين -بلْه الموافقين- وأما الســفهاءُ فلــن يردعهم عن الردود الفجّة اســمٌ مستعارٌ ولا عالمٌ جليلٌ له قدْره ومكانته، والله المستعان.



(١) رواه البخاري (١/ ٣١) قبل الحديث رقم مئة.

لحظات الاحتضار
بين حَيرةِ المتكلمين.. ويقينِ العجائز

١/ ٤/ ١٤٣٦هـ

شيّعْنا في الأسبوع الماضي امرأةً تجمعني بها آصرةٌ من قرابة ومصاهرة، وليست هذه المقالة في الحديث عنها -مع أنها تستحق رَحِمَهَاٱللَّهُ- لكنه حديثٌ ينطلق من بعض مواقفها؛ ليعبِّر عن نموذجٍ يتكرر في أترابها من كبار السنِّ رجالًا ونساءً.

عُمِّرَتِ المرأةُ المذكورة نحو مئةِ عام، وفي أواخر حياتها اعتراها ما يعتري كبيرَ السنّ مِن ضعف، فكانت تسمع من أبنائها الدعاءَ المعتاد بطول العُمُر، ونحو ذلك، فكانت تقول: «يكفي ما عِشْنا... لقد اشتقتُ للموت»! وتُتَمْتِم بكلماتٍ تُشعِرك بالشوق للقاء الله.

هذه التمتمات المعبِّرة عن الشوق للموت، ظهرتْ جليًّا وبوضوح عند نزول الموت -كما حدّثني ابنُها- فإنها لما ضَعُف تنفّسها في الساعات الأخيرة، وأرادوا الذهاب بها إلى المستشفى؛ كانت تردد هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[الجمعة: ٨]، فلما نزل بها الموتُ، لم تزِد على أن قالت: «هلا بالله.. هلا بالله.. هلا بالله! أشهد أن البعثَ حقٌّ»، ثم فاضت روحُها رَحِمَهَاٱللَّهُ!

إنها لحظات لا يمكن التمثيل فيها أبدًا، بل المتحدّث الرئيس فيها هو القلبُ الذي كان يعيش أجملَ لحظاته، وهو يُدْبِرُ عن هذه الحياة المنغِّصة؛ ليُقبِل على فواتح الرحمة الإلهية، نقولها إحسانًا منّا للظنّ بالرب الكريم الذي كانت تعبدُه هذه المرأة، وأمثالها من المؤمنين الموقنين بل المشتاقين للقاء الله.

يحدّثني ابنُها أنها في تلك الليلة -التي فاضت فيها روحُها قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف ليلًا- قرأتْ بعـــد المغرب الأذكارَ كاملةً، ومنها: ســـيد الاســـتغفار، الذي قال النبي ﷺ عن كلـــمات هذا الدعاء العظيـــم: «**مَن قاله من النهار موقنًا به، فماتَ من يومِه قبلَ أن يُمْسيَ؛ فهو مـــن أهلِ الجنةِ، ومَنْ قالَه من الليلِ وهو موقـــنٌ به، فماتَ قبلَ أن يُصبِحَ؛ فهوَ منْ أهلِ الجنَّةِ**»[1].

هذا النوع من كبار الســـنّ، لم يدخلوا يومًا مدرسةً يتعلمون فيها، وما جلســـوا بين يَدَي معلّمٍ في الكتاتيب، لكنّهم رضعـــوا معاني اليقين عبر كلماتٍ يسيرة تلقّوها في صِغَرهم من والديهم، وافقت فطرةً نقيّة لم تتلوث بشيءٍ من نواقض الفطرة ونواقصها، ولا عبثِ الفكر، بل كانت حياتهم عامرةً بحب الله ورســـوله، والقيامِ بأنواعٍ مِن العباداتِ البدنية واللسانية والماليـــة، التي يُرى أثرُها في بوارِق السرور الذي لا تُخطئه العينُ والأذن، سواءٌ في فلتات اللسان، أو على صفحاتِ الوجه، على الرغم من المصائبِ التي تمرّ، والمنغصات التي لا تخلو منها هذه الحياة.

لقد طاف بي طائـــفٌ -وابنها يحدثني عن خاتمة أمّـــه، التي لها نظائر كثيرة- من أخبار العلماء الذين خاضوا في علوم الفلســـفة والكلام، ممن

---

(١) رواه البخاري (رقم٦٣٠٦).

عاشـــوا لحظاتِ الوداع الدنيوي، وختامَ المطـــاف في هذه الحياة، وكيف اتفقتْ كلماتُهم على الحيرة، والقلق، والرغبةِ في الموت على دِين العجائز، الذي لم يتلوث بهذه العلوم التي عَظُم ضَرَرُها.

هذا أبـــو المعالي الجويني يقـــول في آخر حياته: «لقـــد خضتُ البحرَ الخِضَمَّ، وخلّيت أهلَ الإســـلام وعلومَهم، ودخلتُ في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته؛ فالويـــل لابن الجويني! وها أنا أموت على عقيدة أمي، ويُروَى أنه قال: على عقيدة عجائز نيسابور». وقال مرةً لأصحابه: «لا تشـــتغلوا بالكلام، فلو أني عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به»[1].

وهذا الفخر الرازي يقول -بعد صولات وجولات في علم الكلام-: «مَن التزم دِين العجائز فهو الفائز»[2].

واليـــوم تَعود المطالبةُ لســـلوك طريقةِ هؤلاء -الذيـــن جرّبوا مَرارةَ البعدِ عن العلومِ الصحيحة- لكن باســـم الحرية الفكرية، والاستقلال في النظر، والاطلاعِ المطلق على تراثِ الآخرين، دون تمييزٍ أو تمحيصٍ، أو تفريقٍ بين قادرٍ على التمييز مِن غيره!

وإنّ أولَ مَن ســـيكتوي بنارِ هذه الدعـــوى المطلقة والمجرّدة من كل قيْد: هم الداعون أنفســـهم -إن لم يتداركهـــم الله برحمته!- فهل يريدون تكرار تجربة الجويني أو الرازي؟! أخشـــى أن يموتوا قبل أن يَستدركوا!

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣)، و(بيان التلبيس) كلاهما لابن تيمية (١/ ٤٠٧).

(٢) لسان الميزان (٤/ ٤٢٧).

فضلًا على تحمّلِهم أوزارَ مَن ضَلوا، أو شــكّوا في محكماتِ دِينهم بسبب دعواتهم غير المنضبطة..!

فاللهم، موتًا على الإســلام والسنة، موتًا يمتلئ القلبُ معه شوقًا إلى لقائك يا أرحم الراحمين.



الكرسيّ

٧/ ٤/ ١٤٣٦هـ

هذه الآلةُ التي اخترعها الإنســانُ قديمًا ارتبط اســمُها -في العصور المتأخرة- بالمنصب العالي غالبًا، وما مِنْ شخصٍ يَصِل إلى كرسيٍّ إلا بعد ذهابِ مَنْ قبله، فتلك سنةُ الله في هذه المناصب!

والمفارقــة العجيبة في هــذا الكرسي -ومع معرفة الجميع بســنة الله فيه- أن الأكثر تُصيبه السَّــكرة إذا علاه، ويَظن أنه كالجبل الراسي الذي لا تُحركه رياحُ التغيير! فهل لهذا الاشــتراك القويّ بين أحرف (الكرسي) و(السَّــكرة) أَثَر؟ ربما يجمعها أنّ مَن ذاق لذّتــه أدْمَن عليه، كما قال ابن القيم -في حقّ عُبّاد الكراسي-: «فإن الرياســة سَــكْرَةٌ كسكرة الخمر أو أشدّ، ولو لم يكن للرياسة سَكرة لما اختارها صاحبُها على الآخرة الدائمة الباقية»[1].

وللكرسي في نصوص الوحيين حضورٌ واضح، يجمعها: التحذيرُ من الاستشراف لها، والتطلّع للجلوس عليها، وأنه من تطلّع لها وُكِّل إليها،

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٢).

ومن بلغها دون تطلّع أُعِين عليهـــا، وأنها لا تَصلح إلا لمن جمع شرطَي: القوة والأمانة، وما سوى ذلك «**فنِعم المرضعة، وبئست الفاطمة**»[1].

متى ما شـــعر صاحبُ (الكرسي) الذي رشّـــحه مَن فوقه أنه موظفٌ يخدم المســـلمين بمجرد جلوســـه، لا أنه فرصةٌ للتكسّب، أو التعالي على الخلق، والاحتجـــابِ دون حوائجهم، وأنه لم يجلس عليه إلا بعد ذهاب مَن قبله؛ متى شـــعر بذلك، هان عليه الأمر، بل وجد لذّةً في أداء ما أُنيط به، وراحةً عندما يقال له: انزل عنه ليَحُل بدلك.

ومتى ما تحوّل (الكرسيُّ) إلى مصالح خاصة، وغفلةٍ عن كونه وكيلًا عن الأمة عندما جلس على هذا (الكرسي)؛ فهذا عنوان الشقاء والبؤس المعجّل، وأوّل أوان حسراته يومَ نَزْعِـــه منه، وما يعقبُ ذلك من امتلاء قلبه حزنًا عـــلى ما فاته، فضلًا عـــلى ما ينتظره عند الله من حســـاب إذا اجتمعت الخصومُ عند من لا تَضيع عنده مثاقيلُ الذرّ!

ومِن مظاهر الأســـى المعجّـــل لأصحاب الكـــراسي المعزولين بغير رضاهم: فرحُ الناس بســـقوطهم من تلك الكراسي، وهي -لعمر الله- فضيحـــةٌ دنيويةٌ، فكيف بيوم العرْض الأكـــبر إذا تعلّق به آلاف الناس، وربما ملايين، يطلبون من الله حقهم منه؟!

ألا وإنّ مِن أشـــدّ ما يُبتلَى به بعضُ عُبّادِ الكرسي: أن يلبّســـوا بغيَهم وظلمَهـــم وعدوانَهم لبوسَ الدِّيـــن، ولو أنّه كان مـــن دون ذلك لكان عظيمًا، فكيف والأمر كذلك؟! فيا ويل هذا النوع من العبيد حين توضعُ

(١) رواه البخاري (رقم٧١٤٨).

الموازين، وتُنشرُ الكتب التي لا تغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصتها، يومَ: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الروم: ٥٧].

ويبلغُ الكرسيُّ أسـوأ آفاته حين يتخلى الإنسانُ -بسببه- عن مبادئه، ويَقبل بأنصافِ الحلول وأرباعها، ويقـدّم التنازلات تلو التنازلات مِن أجل الوصول إلى هذا الكرسي!

لقد أدركتُ في حياتي وُزراء أُعْفوا من مناصبهم، فأما أحدُهم فتقاطر الناسُ على بيته عَصْرَ ذلك اليوم مهنّئين له بحسن السيرة، وقوّته وأمانته، وممن حضَر وزراءُ البلد وعلماؤه وأعيانه ووجهاؤه، بل إن الموظّف الذي كان يقدّم له القهوة والشـاي في مكتبه كان مـن أوائل مَن حضر ليقدّم القهوة والشـاي لضيوف صاحب المعالي الذي كان على كرسـيّه أمسِ، وآخـرون لم ينتهِ المذيعُ مِن خـبر إقالتهم من مناصبهـم إلا ومَنْ حولي يسـجدون شـكرًا لله على ذلك! يا لها من مفارقة! ونعوذ بالله أن نكون شامتين، ولكن العاقل من اعتبر، واستفاد مما يجريه الله مِن العِبَر.



الكرسي الثاني

١٣/ ٤/ ١٤٣٦هـ

عتَبَ عليّ بعضُ الفضلاء بعد نشري لمقال الأسبوع الماضي (الكرسي) حين غلّبتُ جانبَ الترهيب في حديثي عن (الكرسي) وتبعاته وآثاره، وقال: لمن يُتْرَكُ الكرسيُّ؟ أيَصِح أن يتركه الفضلاءُ لأجل خوفِ التبعات التي أشرتَ إليها؟ وهل تَسلّطَ الفجّارُ في بعض المناصب إلا بسبب هذا النوع من الخطاب في التحذير من الكراسي؟ وحشْد نصوص التحذير من الإمارة والولاية؟ إلى آخر ما تفضّلوا به من ملاحظات، جزاهم الله خيرًا.

وفي الحقيقة لم يكــن المقصودُ من ذلك الخطاب ما أشـــاروا إليه، بل المقصود التحذير من (سَــكْرته) عند الوصول إليــه، وإلا فإن الكرسيَّ أو المنصبَ الديني أو الدنيوي لا بد من شــغله وعدم تركه لغير الأكفاء؛ لأن التبعة على الأمّة حينئذٍ ســتكون كبيرة وعظيمة، والشواهد أكثر من أن تُحصَر، ولأجل هذا نصَّ جماعةٌ من المصنفين في (السياســية الشرعية) على أنه قد يتعين السعيُ للكرسيِّ في بعض المواضع؛ رعايةً لمصالح الأمة، وحفظًا لحقوقها.

واستنبط بعضُ المفسّرين ذلك من قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥]، فهو حفيظٌ لما وُلّي، واستُودع، وعليمٌ بأمر تدبيره. والملاحَظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أقدَمَ على الكرسي بهذه الصفات لم يَسأل مالًا لنفسه، ولا عَرَضًا من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائـــن الدولة؛ ليحفظ الأموال، ويَعـــدل في توزيعها، ويَرفق بالأمة في جمعها ووضعها في مواضعها، وهذا لعمر الله هو الفقه، والتديّن الحقُّ، فرعاية أموال الأمة، والدِّقةُ في توزيعها من أخطر الكراسي، ولك أن تتصور -في تلك الظروف التي عاشتها الدولةُ في زمان نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ- لو تولاها قليلُ العلم بالتدبير، أو مطعونٌ عليه في أمانته؛ كيف سيكون حالُ الناس؟!

ومِـــن فقه النـــووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حـــين شرح حديـــث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرن على اثنين، ولا تَولّين مال يتيم**»(١)، وبينّ أنه أصلٌ عظيمٌ في اجتناب الولايات -ولا ســـيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائـــف تلك الولاية- قال بعدها مباشرةً: «وأما من كان أهلًا للولاية، وعَدَلَ فيها؛ فله فضلٌ عظيم تظاهرت به الأحاديثُ الصحيحةُ كحديث: «**ســـبعة يظلهم الله...**»(٢)، وحديث: «**إن المقســـطين على منابر من نـــور...**»(٣)، وغير ذلك، وإجماعُ المسلمين منعقد عليه»(٤).

---

(١) رواه مسلم (رقم١٨٢٦).

(٢) رواه البخاري (رقم٦٦٠)، ومسلم (رقم١٠٣١).

(٣) رواه مسلم (رقم١٨٢٧).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢١٠).

ومما يحســـنُ ذكره والتنويه بــه في هذا الباب: وجــودُ عددٍ غير قليل من النماذج المشرقة لمن ترجّلوا عن كراســيّهم، إمــا بموت أو إعفاء، أو لغير ذلك من الأســباب، ولم تأخذهم سَكرةُ المنصب، ولا طوّحت بهم الألقاب، ولا اســتهوتهم أبّهة الجاه، مع كثرة المغريات وتنوعها، خاصةً في عصرنا هذا.

إن الدَّيانة كما تكون في ترك المنصب خشيةً من التَّبِعة، فهي كذلك في الموافقة على تولّيه إذا غلب على ظنّه القيام بحقّه، دون أن تستشرف نفسُه لذلك، فإن الاستشراف مَظِنة الكِلَةِ إلى النفس والخذلانِ - عياذًا بالله-، «وقد جاءت شواهد الســنة: بأن من ابتُلي بغير تعرّض منه؛ أُعين، ومَن تعرّضَ للبلاء خيف عليه»[1].

والمبتــلى بهذه الكــراسي، لا غنى له -لينجو- عن ســؤال الله العونَ والتســديد، والاســتعانة برأي ذوي العقول والخبرة، ممن يتخذهم عَيبة نصحٍ، يستشيرهم في الملمّات، فما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.



(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٢١).

مشغول!

١٩/ ٤/ ١٤٣٦هـ

يبدو أن هذه الكلمة مِن أكثر الكلمات التي نسمعها ممن يُطْلبُ منهم عملٌ ما!

ومن المؤكـد أن بعضَهم كذلـك، إلا أن مما يدعو إلى الدهشـة: أن يفاجئـك طفلٌ في المرحلة الابتدائية-عندمـا تطلب منه عملًا، أو تعاتبه على تقصيره- فيقول: أنا مشغولٌ!

الانشـغالُ الحقيقيُّ المثمِر علامـةُ حيويةٍ ودَأَبٍ، والإنسـانُ بطبعه (همّـام)، بل التوقّـف علامةُ مرَض، لكـن هل هذه الكلمـة تُقال في موضعها؟ أم هي كلمة نعبِّر بها -أحيانًا- عن هروبنا من تحمّل المسؤولية أو العمل الذي يُراد مِنّا فعلُه وتنفيذُه؟

الواقع أن أكثر الناس لديه وقتُ فراغٍ كثيرٍ، ويعيش (فوضى منظّمة)، والقليل منهم من يرتبط بأعمالٍ تسـتهلك أكثـرَ وقته، ولا أظن أنني في حاجة لذِكر الشواهد على هذا.

والسبب في انتشار هذه (الفوضى المنظّمة) -في تقديري- هو: غيابُ

الأهــداف الواضحة عند كثيرٍ من الناس، وأعني بها الأهدافَ الواضحةَ للإنســان في هذه الحياة، الأهداف التي تنقل الإنســانَ مِن السَّــلبية إلى الإيجابية والتأثير، ومِن الفوضى إلى الترتيب.

ومِــن البدهــي -الذي لا يحتــاج إلى تقريــر- أن النــاس تتفاوت هِمَمُهــم، وتتباين أهدافُهــم وقدراتُهم، لكن من المؤكــد أن كثيرًا منهم يســتطيع أن يكون رقمًا مؤثرًا ولو تأثيرًا قليلًا، المهم أن يَطرد عنه الكسلَ والانشــغالَ الموهومَ، وإلى هذا يشــير قولُــه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبى لعبدٍ آخذٍ بعَنان فرَسه في سبيل الله، أشعثٌ رأسُه، مغبرةٌ قدَماه، إن كان في الحراسةِ كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في الساقة**»[1]، فهذا رجــلٌ قد لا يُؤبَه لــه، لكنه شــخصٌ مؤثِّر، وحيثــما وُضِع نَفَع.

ومِن الأجدر بالعاقل أن يراجع ترديدَه لكلمة (مشــغول)، وأين تقع هذه الكلمة في خريطة حياته (الجادّة)؟ وكم سيضيف ترديدُ هذه الكلمة إلى رصيده من المنجزات بعد عشرات السنوات؟!

وثمة نوعٌ من الشغلِ لهجتْ به ألسنةُ السلف الصالح -رضي الله عنهم- وهو شــغل القلب واللســان بما يصلحهما، كقول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنما هذه القلوب أوعية، فاشــغلوها بالقرآن، ولا تشــغلوها بغيره»[2].

ويقول جعفر بن محمــد: «إياكم والخصومة في الدين؛ فإنها تَشــغل القلبَ، وتُورث النفاق»[3].

(١) رواه البخاري (رقم٢٨٨٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦).

(٣) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٢٦).

ومِن توفيق الله لعبده أن يوفِّقه لنوعٍ من أشرف معاني هذا (الانشغال)، وهو: أن ينشغل العبدُ بعيوبه عن عيوب غيره، ولسانُ حالِه يقول: إن في النفس لشُغْلًا عن الناس.

والويل لمن ابتُلي بالانشغال بعيوب الناس عن عيب نفسه، أو انشغل بباطلٍ من القول أو العمل، يجد غِبّه إذا انتقل عن هذه الدار.

ولنختم هذه الأســطر بكلمةٍ معبّرة على الرغم من قِصَر كلماتها، تلك هي التي لخّصهــا الإمامُ عبدالرحمن بن مهــدي (١٩٨هـ) واصفًا حالَ شــيخه المحدِّث الجليل حمّاد بن سلمة (١٦٧هـ) بقوله: لو قيل لحمّاد بن سلمة: إنك تموت غدًا؛ ما قَدِرَ أن يزيد في العمل شيئًا![1].

اللهم، فاملأ قلوبَنا بك فرحًا، وألســنَتنا لك ذِكــرًا، وجوارحَنا فيما يرضيك شُغلًا.



(١) ويعني بذلك عمل البدن، أما عبادات القلب فلا حدّ لها.

التربية بالقرآن.. والعودة إلى المنهج الأصيل

٢٥/ ٤/ ١٤٣٦هـ

الجزء الأول من عنــوان هذه المقالة هو عنــوان الملتقى الذي نظّمته الجمعيةُ العلميةُ الســعوديةُ للقــرآن وعلومه (تِبيان) بعنــوان: (التربية بالقــرآن... نــماذج وتجــارب) نهاية الأســبوع المــاضي (٢٢-٢٣/ ٤/ ١٤٣٦هـ) في رحاب جامعة أم القرى[١].

والتميز الذي لمسه الحضورُ والمشاركون في هذا الملتقى، هو: الانتقالُ بكثيرٍ من بحوثه وتجاربه من التنظير إلى التطبيق، حيث اســتمع الحضورُ إلى نماذج عملية تمّ تطبيقُها في سبيل تحقيق هذا الهدف (التربية بالقرآن).

ومع يقين كل باحــثٍ بأهمية التأصيل والتنظير في هذا الموضوع المهم (التربية بالقرآن)؛ إلا أنه قد حان الوقتُ للإفادة من التجارب القائمة في الساحة، ســواء هنا في المملكة أم في غيرها من بلاد الإسلام؛ لأن الغاية مــن البحوث المؤصِّلة لهذا الموضوع هي: الانتقــال بها إلى الميدان؛ ليفيد منها المربّون، والمعلّمــون والمعلمات، والجهاتُ الإدارية التي تُشرِف على حلقات ودُوْر تحفيظ القرآن الكريم.

---

(١) يمكن تحميل بحوث هذا الملتقى من هنا:
http://www.alquran.org.sa/main/articles.aspx?article_no=709&search=1.

لقد بعث هذا الملتقى الأملَ، وجدّد الفألَ في النفوس بأن في الأمة خيرًا كثيرًا، وأن هناك رجالًا ونساءً يعملون، ولا يَكلّون في سبيل الأخذ بأيدي الأجيال إلى رياض القرآن، وتربيتهم بهديه، وصناعتهم على قِيَمِهِ وأخلاقه، في منظومةٍ من البرامج والمناهج المبنيّة على أُســسٍ علمية وإدارية جيدة.

ولقــد كنتُ، وأنا أســتمع إلى بعض تلك التجارب والنماذج أشــعر بالغبطــة والسرور، وأنا أرى العودة إلى المنهج الأصيل في التربية القرآنية (الإيمان قبل القرآن)، الذي عبّر عنه جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -ونحن فتيــان حزاورة[1]- فتعلَّمنا الإيمانَ قبل أن نتعلــم القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن؛ فازددنا به إيمانًا[2]، وورد نحوَه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والمراد بهذا المبــدأ -الإيمان قبــل القرآن- : غرسُ معــاني الإيمان، وتعظيمُ أمر الله ورســوله في القلوب، ومحبّتهــما، وتقديمُ ذلك كلّه على النفس والوالد والولد والنــاس أجمعين، وجعْلِ ذلك من شروط صحة الإيمان، في تنويعٍ عجيبٍ في الوسائل التي تُحقِّق هذا الأصلَ المهمَّ.

ومما يوضح شيئًا من تفاصيل هذا المنهج النبوي، الذي تلقّاه الصحبُ الكرام عــن المربي الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثــم نقلوه إلى التابعــين؛ ما رواه أبوعبدالرحمن السُلَمَيّ، فقال: إنا أخذنا هذا القرآنَ عن قومٍ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلّموا عشرَ آيات لم يجاوزوهن إلى العَشر الأُخَر حتى يَعلَموا ما

(١) حزاورة: جمع حــزْوَر، وحزوّر: هو الذي قارب البلوغ، والتــاء لتأنيث الجمع، ينظر: (النهاية) (١/ ٣٨٠).

(٢) رواه ابن ماجه (رقم٦١)، وسنده حسن.

فيهن، فكنا نتعلّم القرآنَ والعملَ به، وإنه سيرث القرآنَ بعدنا قومٌ لَيَشْرَبُونه شرب الماء، لا يجاوز تراقِيَهم! بل لا يجاوزها هنا، ووضع يده على الحلْق[1].

وهـــذه الآثار -أثر جندب وابن عمـــر وأبي عبدالرحمن- تُبين المنهجَ النبويَّ الذي ســـار عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غرس هـــذا المبدأ، وكيف أخرج ذلك الجيـــلَ العظيمَ -جيـــل الصحابة- مع أن أكثرهـــم لم يكن حافظًا للقرآن كله، بل الحفّاظ فيهـــم قليل! لأنهم تلقّوا حقائقَ القرآن، وفهِموا مقاصدَه ومعانيه؛ فسرى هذا في عباداتهم، وسلوكهم، ومعاملاتهم.

ومَن تأمل في قصة إراقة الخمر، وفي قصة أبي طلحة حين نـــزل قولُه تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران:٩٢] وتصدُّقِه ببستانه، وقصةِ ثابت بن قيس حين نـزل صدرُ سورة الحجرات، وقصةِ كعب بن مالك حين أُمِرَ بمفارقة زوجته، فقال: أُطلِّقها أم أُلحقها بأهلها؟ وقصةِ نساء الأنصار حين نـزلت آيةُ الحجاب، وغيرها كثير؛ من تأمل ذلك كلَّه علم أنها شواهد على أثر هذه التربية النبوية العظيمة.

لذا، فإنني أتمنـــى أن يعود تطبيقُ هذا المنهـــج -الإيمان قبل القرآن- في حلقات مســـاجدنا، ولئن كان يَصعب تحويلُ الحلْقات كلها إلى هذا، فلا أقلّ من تأســـيس حلقةٍ في كلّ مجمّع تتبنى ذلك، وهذا يســـبقه تهيئةُ المدرّسين الذين يقومون على هذه الحِلَق؛ إذْ لا بد أن يكونوا ممن يتحلَّون بخلُق القرآن، وعلى قـــدْرٍ جيدٍ من التحصيل الشرعي، خاصةً في القرآن وعلومه، وأن يكونوا ممن عُرفوا بذلك، فالتلقّي هنا ليس مجرد تلقين، بل نقلٌ للمعرفة والسلوك.

---

(١) رواه ابن سعد في (الطبقات) (٦/ ١٧٢) وسنده جيد.

إن كثيرًا من طــلاب الحلقات لا يتهيأ لهم الاســتمرار حتى يحفظوا -وهذا شيء طبيعي- فلتبْقَ معهــم التربيةُ الإيمانيةُ، والهداياتُ القرآنيةُ، وإن لم يُكمِلوا حفظ القرآن؛ إذْ المقصد الأكبر إصلاحُ القلب والسلوك ما أمكن، وإن لم يتيسر الحفظ؛ فالحفظ فضلٌ يؤتيه الله من يشاء، وعلى مدار القرون لم يكن الحفّاظ إلا عددًا قليلًا في الناس.



ثقافة الاعتذار

١/ ٥/ ١٤٣٦هـ

حياتنا الاجتماعية تكتظ بألوانٍ من الارتباطات والعلاقات، هي في مُجمَلها حسنةٌ جميلةٌ، ومما تتميز به المجتمعات الإسلامية -والعربيةُ بشكل أخصّ- عن كثيرٍ من شعوب الأرض.

إلا أن هذه العلاقات تمرّ ببعض المنعطفات التي تؤدّي في بعض الأحيان إلى انقطاعها وتَصرّم حبالها! بسبب عدم مراعاة أحدِ الطرَفين لبعض الأسس والمبادئ التي تقوم عليها هذه العلاقات.

وإذا كان أهمّ هذه الأسسِ: الاحترامُ والتقديرُ المتبادلُ، ومراعاةُ كلٍّ من الطرفين حقوقَ الآخر؛ فالعاقل يراعي ذلك، فهو أدعى لديمومة العلاقة واستمرارها.

ولما كان النقصُ والخطأُ طبيعةً في البَشَر؛ فمن المهم أن يُبادِر المقصّر والمخطئ للاعتذار، وردمِ الهوّة التي قد يوسّعها الشيطانُ بوسوسته، وألوان الظنون التي تأتي في النهاية على بنيان تلك العلاقات من القواعد، فتخرُّ، وتنهارُ، وقد تكون تلك المودةُ بين قريبَين أو صديقين قديمي الصداقة.

وردمُ الهوّة التي تنتج عـــن موقفٍ ما -قد لا يخطر ببال أحدِ الطرفين موقعه عنـــد الطرف الآخر- وقطعُ الطريق على الشـــيطان؛ منهجٌ نبويٌّ عظيمٌ، دلّت عليه مواقفُ عدة في الســـنَّة، منها ما رواه أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن وغطفـــان وغيرُهم بذَرَاريهم ونَعَمهم، ومع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ عـــشرة آلاف، ومعه الطُّلَقاء، فأدبروا عنه، حتـــى بقي وحده! قال: فنادى يومئذٍ نداءَين، لم يخلط بينهما شـــيئًا، قال: فالتفتَ عن يمينه، فقال: «يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، قال: ثم التفتَ عن يســـاره، فقال: «**يا معشر الأنصار**» قالوا: لبيك يا رســـول الله، أبشر نحن معك، قال: وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: «**أنا عبد الله ورســـوله**»، فانهزم المشركون، وأصاب رســـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنائـــمَ كثيرةً، فقســـم في المهاجرين والطلقـــاء، ولم يُعْطِ الأنصارَ شـــيئًا، فقالت الأنصار: إذا كانت الشدَّة فنحن نُدعى، وتُعطى الغنائم غيرَنا! فبلغه ذلك؛ فجمعهـــم في قُبة، فقال: «**يا معشر الأنصار! ما حديث بلغني عنكم؟**» فسكتوا، فقال: «**يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يذهب الناسُ بالدنيا، وتذهبون بمحمد تحوزونه إلى بيوتكم؟**» قالوا: بلى، يا رســـول الله، رضينا، قال: فقال: «**لو سلك الناسُ واديًا، وسلكت الأنصارُ شِعبًا، لأخذت شِعب الأنصار**»(١).

فانظر كيـــف بادر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهـــو الذي يُوحَى إليـــه- إلى قطعِ الطريق على الشيطان، وترضية الأنصار بهذه الكلمات التي تُعادِل غنائمَ الدنيا كلها.

(١) رواه مسلم (رقم١٠٥٩).

إن التأخّــر في الاعتــذار -فضلًا على التنكّر له بوصفــه مبدأً- ليس بجيّد، خاصــةً إذا كانت الصداقــة أو العلاقة لم تبلغ درجــةً من المتانة بحيــث لا تُحوِج للاعتذار، كما قال يحيى بن معاذ: «بئس الصديقُ صديقٌ يُلجئك إلى الاعتذار»، ولكن مَنْ لي بمثل هذا المستوى من الصداقات؟! إنــه لنادرٌ كندرة الكبريت الأحمر، وقد أحســن القائل: «الاعترافُ يهدم الاقتراف»[(١)]؛ أي إنه يمحو أثرَ الخطأ والتقصير.

وفي المقابــل: فإن على الطــرَف الآخر -صاحب الحــقِّ- كالداعي لمناسبة، أو طالبِ المعونة والمســاعدة؛ أن يكون واسعَ الصدرِ في التماس الأعذار لإخوانه، جاعلًا تلك المقولة الشــهيرة نصب عينيه: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تُنكِره؛ فالتمس له عذرًا واحدًا إلى ســبعين عذرًا، فإن أصبته وإلا فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه»[(٢)].

وليســتحضر مقولةَ ذلك الرجــل العاقل -جعفر بــن يحيى- حين اعتذر إليه رجلٌ، فقال له: «قد أغنــاك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن»[(٣)]؛ لأنّ تَطَلُّبَ الإنسانِ للاعتذار من إخوانه دومًا يوجب التكلف، ويُشــعِر الأخ بنوع من الغربة عن أخيه وصديقه، والسبب؟ كلمة عابرة، أو زلة لسان!

وليتذكر أحدُنا أنه في حال ما اســتوقف الآخريــن عند كلِّ صغيرة وكبيرة؛ فإنه ســيضطرهم إلى المعاملة بالمثل، وإذا صار التلاومُ والعتابُ سِمةَ العلاقة؛ فقد آذنت بصُرْمٍ!

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ١١٣).

(٢) شعب الإيمان (١٠/ ٥٥٩).

(٣) العقد الفريد (٢/ ١٨).

وليســـتَ بمُسْـتَبْقٍ أخًـا لا تَلُـمُه

على شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ؟!

وكان البضعـــة النبوية جعفر بن محمد الصـــادق -رحمه الله- يقول: «أثقل إخواني عليّ: من يتكلّــف لي وأتحفظ منه، وأَخَفّهم على قلبي: من أكون معه كما أكون وحدي».

ويتأكد هذا المعنى، في حقّ من بوأه اللهُ مكانةً في قومه ومجتمعه؛ كشيخ القبيلة، وشيخ العلم، وأمثالها؛ إذْ «لا يصلح للصَّدْر إلا واسع الصدر» كما قال بعضُ البلغاء.

وبالجملة: فالنفسُ إذا عُوّدت مكارمَ الخصال، وجاهدتْ على ذلك؛ تطبّعت، واســتقامت، وإذا كان صرْم الحبال مع الناس سهلًا؛ فإن إبقاء حبال المـــودة، والصبر على تفـــاوت أخلاقهم لا يَقدر عليـــه إلا عظماءُ الرجال، وهكذا كان سيدي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال الله له: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩].



صفحة من حياة شيخ الحنابلة

٧/ ٥/ ١٤٣٦هـ

شـــيخنا الشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل (ت:١٤٣٢هـ) المعروف بشـــيخ الحنابلة؛ عَلَمٌ ماجدٌ، وقامةٌ مشهورةٌ في الحركة العلمية والقضائية في بلادنا، بل وخارجها.

ولستُ في هذه الأسطر أُترجم له، أو أتحدث عن سيرته؛ فقد كَتب عنه مَنْ لازموه، واستفادوا منه كثيرًا(١)، أما العبد الفقير فقِراءاته عليه جاءت في آخر سنتين من حياته رحمة الله عليه، لكنني قصدتُ منها أن تكون لفتةً إلى خصلةٍ عظيمةٍ تميّز بها، وصارت جزءًا من شخصيته، ومحلَ إجماع عند كل مَن عرَفه أو شامه العلم، أو جلس عنده بضعة مجالس، التي كان لها أثرٌ

---

(١) صدرت لشـــيخنا ترجمة ضافية ومطولة في أربع مجلدات، نشرتها دار الصميعي، واعتنى بها تلميذه الشيخ بلال الجزائري -أثابه الله-. وأكثر ما ينتقد على الترجمة خلوها من ذكر أســـماء من اســـتفادوا من علمه، وهذا نقصٌ بيّن في أحد أركان الترجمة المعتبرة عند أهل العلم، نرجو أن يستدرك مستقبلًا في الطبعة القادمة.

وقد أحســـن موقع الألوكة حين أنشأ صفحة لشيخنا على الشبكة، جمعت عددًا من كتبه وصوتياته:

http://www.alukah.net/web/alaqeel/10108/

وفي هذه الصفحة مقالات عدة تحدثت عن جوانب من شخصيته.

كبير في توافد الطلاب عليه من داخل المملكة وخارجها، لينهَلوا من عِلمه وعطائِه حتى آخر لحظة من لحظات بذلــه، إنها: التواضع غير المتكلَّف.

والتواضعُ يقع موقعه إذا صدر من الكبار -وشــيخنا منهم-، ولهذا التواضع مظاهر جلية، لا تخطئها عينُ الإنسان الذي يحضر بضعة مجالس، من أبرزها:

١. **التواضع العلمي**: المتمثل في اســتفادته من كل أحدٍ لديه فائدة، لا يتردد في الاحتفاء بهــا، والثناء عليها، ولو كان المفيدُ بها أحدُ طلابه بلْه أقرانه.

أذكر أن أحدهم أخبره عن طبعة مميزة لأحد الكتب، فقال: جزاكَ الله خيرًا، هذه فائدة منك، ثم ســأله عن الطبعة والمحقِّق وجودة التحقيق، وأين يباع؟ وأوصى باقتناء نسخة من الكتاب.

وكثيرًا ما ينصّ -عند الترجيح الفقهي- على اختيارات بعض أقرانه ومَن هم أصغر منه ســنًّا، ولا أحصي كم سمعته يذكر اختيارات شيخنا العلامة ابن عثيمين في المسائل الفقهية، مع أن شيخنا العثيمين من حيث السنّ أصغر من شيخنا ابن عقيل باثنتي عشرة سنة! وإذا أردتَ المزيد من هذه النماذج فاقرأ رسالته: (تحفة القافلة في حكم الصلاة على الراحلة).

٢. **التواضع الشخصي**: وهذا ظاهرٌ جليٌّ في حفاوته بمن يزوره من أهل العلم، سواءٌ كانوا علماء أو طلاب علم، وجُلُّ من يزوره أصغر منه ســنًّا، ومع هذا يُظهر لهم من الاحترام والتقدير شــيئًا لافتًا للنظر، وله في هذا مواقف كثيرة، منها -وهو شيء شــاهدته، أو ســمعته،

وما خفي عليّ أكثر-: حرصه على زيارة شـــيخنا العثيمين في مخيمه في الحجّ.

ومرةً قدّم له تلميذُه وصديقنا أ. د. عبد المحســـن العسكر في محاضرة (ابن ســـعدي كما عرفته)، وقبل أن يبدأ شيخُنا ابن عقيل بالمحاضرة علّق قائـــلًا بكلام معناه: إن قول د. عبدالمحســـن: إنه اســـتفاد منّا كثيرًا، فأنا أقول: إن ما أستفيده منه أكثر مما يستفيده مني! أو كلامًا هذا معناه.

وإذا قَدِمَ عليه طالبُ علم كبيرٍ في مجلســـه، أثنى عليه، وعلى ما له من مؤلفات، وحثَّ على الاستفادة منها، وقع هذا أكثر من مرّة.

ومواقف الشيخ في هذا يصعب حصرُها، والأهمُ من ذلك هو ما أثَر تتبع مثل هذه الخصلة علينا معاشر طلاب العلم في حياتنا العامة؟

لا ريب أن القدوة المطْلقة في كل خُلق نبيل هو رســـولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن مِن فضل الله تعالى أن يجعل للناس أئمة يُقتدى بهم في الخير -علمًا وعملًا-، يرون فيهم نماذج ربانية يُحيي بها اللهُ ما اندرس من رِمم مكارم الأخلاق.

والنـــاسُ يحتاجون إلى طالـــب العلم المتواضع، الـــذي يكسر بعضَ الحواجز المصطنعـــة، التي ربّما تشرّبها بعضُ الطلاب خطًا -شـــعر أم لم يشـــعر- من بعض الكتب المصنَّفة في (آداب طالب العلم)، التي تحدثت عـــن صيانة العلم، ففهم بعضُهم ذلك على غـــير وجهه، فأوجد حواجز وهمية، جعلته في مكان قـــصيّ، وقلّلت من إفادة الناس من علمه وقرب الناس منه.

ومن اشــتبه عليه شيءٌ من ذلــك، أو غلب عليه مــا يوافق طبعه مما يقرؤه في كتب التراجــم؛ فليقرأ هذا الحديث الذي ذكره أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة مَقدَم ضمام بن ثعلبة، فقد ســأل حين دخــل: أيكم محمد؟ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متكئ بين ظهرانيهــم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ![1] الله أكبر! لم يستطع ضمام أن يميز النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى سأل عنه!

وبعــد ذلك دعْ عنك يا طالب العلم- كل النماذج التي تبالغ في حفظ وقار العلم، حتى عزلت العالِمَ عن عالَمِهِ!

وما ســبق لا يُفهم منه -بالتأكيد- ابتذال العلم، ولا إســقاط هيبته ووقــاره، بل هو دعوة لخلع بعــض الأردية والحواجــز الموهومة، التي حالــت بين أهل العلــم وبين طلابــه، والله الموفق لأحســن الأخلاق والأقوال والأفعال، لا يهدي لذلك إلا هو.



(١) رواه البخاري (رقم٦٣).

قناة يوتيوبية

١٣/ ٥/ ١٤٣٦هـ

أثبتَ الجيــلُ الجديدُ من الشــباب وجودَه بل وتأثيره في اســتخدام الإعــلام الجديد للتعبير عن بعــض همومه، وللحديــثِ بالطريقة التي يراها مناسبةً لمخاطبةِ أقرانه من الشباب الذين يمثّلون القطاعَ الأكبرَ من مجتمعاتنا العربية على وجه الخصوص، متخفّفين بذلك من العقبات التي قد تواجههم في الإعلام التقليدي.

عدّادُ الإحصاءات (اليوتيوبي) يؤكد أن أعدادَ المشتركين في القنوات الفردية لبعض الشــباب تجاوزت -وبشكل مضاعف- أعدادَ المشتركين في القنوات اليوتيوبية التي تملكها قنواتٌ فضائيةٌ مشــهورةٌ، مشاهدوها بعشرات الملايين!

وهذا كله مؤشر واضح على نجاح هؤلاء إعلاميًّا وفنيًّا -بغض النظر عن مضمون هذه القنوات- في مخاطبة هذه الطبقة من المجتمع، التي هي من أصعب مراحــل العمر؛ لكثرة ما يعتريها من تقلبات فســيولوجية، ونفسية، وفكرية.

وبعد اطلاعي على مضامين بعض هذه القنوات؛ وجدتُ أن الهادفَ منها، أو الــذي يجمع بين الترفيه والإفــادة معًا قليل بالنســبة إلى باقي القنوات التي خلا أكثرها -مع الأسف- من الجمع بين الترفيه والإفادة، بل بعضها تضمّن محاذير شرعية واضحة؛ كالتهاون في إدراج الموسيقا، أو صور ومقاطع لنساء متبرجات، وأخطرُ من هذا بعض المضامين الفكرية الخطيرة التي تتضمنها بعضُ هذه المقاطع؛ من ســخرية بالشعائر الدينية والأحكام الشرعية!

ومع كثــرةِ هذه القنوات التي تزداد يومًا بعد يوم؛ أردتُ أن أرســل هذه الرسالة إلى إخواني وأبنائي ملاك هذه القنوات والمقدّمين فيها، وإلى المشجعين لهم من المشتركين، التي أرجو أن تصل إلى قلوبهم كما خرجت من قلبي، فأقول:

- رؤيةُ آثار النجاح شيءٌ يبعث على السرور، ويدفعُ للمزيد، فهل فكّرنا في مضمون ما نقدّم؟ وأنه على أقلّ الأحوال لا يجلب لنا ســيئاتٍ إذا أفضينا إلى ربنا تعالى، فإن ميزان النجاحِ والفوزِ هناك إنما هو برجحان الحســنات على السيئات فقط لا غير، لا شهرة، ولا كثرة مشتركين أو متابعــين! ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].

- الوصولُ إلى الناس، والرغبةُ في كثرة المشتركين لا يجوز أن يكون على حساب القفز على المســلمات والثوابت الدينية، ولا بإقحام المشَاهِدِ التي فيها محاذير شرعية.

- إن كلَّ مســـلمٍ يكرهُ أن يعصي الله في نفسه، فضلًا على أن يجلب لنفسه ملايين الســيئات على حساب ملايين المشــاهَدات! والموفّق هو من يستولي عليه همّ رضا الله قبل همّ الأرقام المليونية للمشاهدات.

وإني أعيذك بالله أن تكون ســببًا في تجرئة فئام من الشباب والفتيات على الطعن في الثوابت، أو الســخرية بالمســلَّمات بسبب مقطعٍ أو مشهدٍ من المشاهد؛ فإن هؤلاء لن ينفعوك إذا وقفتَ بين يدي ربك حافيًا عاريًا، بل ســيكونون خُصماء لك؛ لأنهم ســيحتجون أمامَ الله عليك بأنك مَنْ دللتهم على ذلك، وأدَعُ لك المجال لتسبح في التفكر في الفرق بين هذين النموذجين اللذين ذكرهمــا نبيك ﷺ بقوله: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور مَن تَبِعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شــيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»(١)، فمن أي الفريقين تحب أن تكون؟

- هل فكرتَ -أخي- كم ســتبقى هذه المقاطــع بعد موتك؟ خمس أم عشر ســنين؟ أم ربع قرن؟ أم كم؟ ما الذي ســتتمناه حين تُوَسّد في قبرك، وقد تركتَ خلفك هذه التركة من عشرات ومئات المقاطع؟

- حاول -قبل أن تنشر أي مقطع- أن تجيب عن بعض الأســئلة: هل هذا الذي ســأقدمه يرضي الله؟ هل ســيكون في رصيد حســناتي أم ســيئاتي؟ ما الذي ســيضيفه للمجتمع والأمة؟ وإلا فاحفظ وقتك، وسخّر جهدك للأنفع.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٦٧٤).

- ســيأتي بعض الأنبياء يوم القيامة، وليس معه أحــد! وهو نبيٌّ مؤيدٌ بالوحــي، وهو على حق، وســيكون في أعلى منــازل الجنّة! أرأيت؟ فميــزان الرفعة عند الله في الدنيا والآخرة لا يركنُ إلى الأرقام؛ بل إلى سلامة المنهج.

والمقصود من هذا ليس دعوةً إلى ترك هذا الميدان، بل هي دعوة للنظر في مضامين ما نقدّم، وأن نعتني كثيرًا بالنظر في المســتقبل الأخروي قبل الدنيوي، فهو المستقبل الأبدي، وهو الذي لا يُخْفَضُ فيه من ارتفع، ولا يرتفعُ فيه من انخفض.



فقهاء الحسد

١٩/ ٥/ ١٤٣٦هـ

حين يُذكَر الفقه؛ فلا يكاد ينــصرف الذهنُ إلا للفقه في الدين، وهو شيءٌ مفهوم، ولكنْ ثمةَ نوعٌ من الفقه يمنّ اللهُ به على مَن يشاء مِن عباده، وهو (الفقــه بأدواء النفوس)، وكيفية التعامل معهــا، والقدرةِ على نزع فتيل تلك النار التي تشــتعل في قلوبِ بعض الأنفــس التي لا تَرى إلا المساوئ، ولا تعرف الإنصاف!

ومن صور هذا الفقه: التعامل مع الحُسّــاد، إذْ لا يَسلَم ذو نعمة من حاسد، «وبحســب فضل الإنســان، وظهور النعمة عليه؛ يكون حسد الناس له، فإن كثُر فضلُه كثر حسّــاده، وإن قلّ قلّوا؛ لأنّ ظهور الفضل يثير الحسد، وحدوثُ النعمة يضاعف الكمَد»[1].

وفي القرآن الكريم والســنة النبوية إشــارات إلى فقه التعامل مع هذا النوع من الناس، منها:

- العفو والصفح عن الحاســد، أو الإعراض عنه تمامًا، حتى يُظْهِر اللهُ المحســود عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ

(١) أدب الدنيا والدين (ص١٧٦).

لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ١٠٩].

وفي قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أظهَرُ دليل على هذا المعنى، فلله درّه حين قال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف:٩٢]، بل بالغ في الإعراض عن ذكر آثار حسدهم ولو بالإشارة، فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ ﴾[يوسف:١٠٠].

وفي تعامل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع رأس النفاق عبدالله بن أُبيّ منهجٌ واضح في هذا، فإن ابنَ أبيّ لم يمنعه من القبول برسالة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والانقياد لأمره إلا الحسدُ، إذْ كان يترقب تسويدَه على أهل المدينة، فلما بُعث صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرِقَ بدعوته؛ فعاداه، وآذاه، حتى أظهر اللهُ نبيَّه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه.

- إشعارُ الحاسد تصريحًا أو تلميحًا -وهذا يختلف بحسب المقام- بأنه لا يمنعني من مقابلة آثار حسدك إلا خوفُ الله تعالى، وفي قصة ابْنَي آدم ما يشير إلى هذا: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[المائدة:٢٨-٢٩].

- الصبر على أذى الحاسد، وعدم شكواه، ولا يحدّث نفسَه بأذاه أصلًا! فما نُصِرَ محسودٌ على حاسده بمثل الصبر عليه، والتوكّلِ على الله؛ فهو من أقوى الأسباب الّتي يَدْفع بها العبدُ ما لا يُطيق من أذى الخلق

وظلمِهم وعدوانهم، ومن كان اللهُ حسبَه وكافِيه وواقيه فلا مَطمَع فيه لعدوّه.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[الحج:٦٠] فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولًا؛ فكيف بمن لم يستوفِ شيئًا من حقه! بل بُغي عليه وهو صابر؟![1].

- الإحسان إلى الحاسد، وهذا- كما يقول ابن القيّم-: «من أصعب الأسباب على النفس، وأشقّها عليها، ولا يوفّق له إلّا مَن عظُم حظّه من الله»[2]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[فصلت:٣٤-٣٦].

ومن الفقه في التعامل مع الحاسد: إفهامه -برسالة واضحة- أن الحسد لن يَضرني، ولن ينفعك، كما يعبّر عن ذلك موقفُ شُريحٍ القاضي من رجلٍ قال له: إني لأحسدك على ما أرى من صبرِك على الخصوم، ووقوفِك على غامض الحُكْم! فقال: ما نفعك اللهُ بذلك ولا ضرّني[3].

وبالجملة، فإن الفقه في التعامل مع الناس مِنّةٌ إلهيةٌ، ومِنحةٌ ربانيةٌ، يوفَّق لها من اجتهد في تحقيق هذه القاعدة القرآنية من قواعد التعامل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩].

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٩).
(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٣).
(٣) أدب الدنيا والدين (ص٢٧٠).

المِرآتيون

٢٥/ ٥/ ١٤٣٦هـ

قبل نحو عشرين سنة؛ طلبَ مني مرةً أحدُ الأصدقاء -وهو طالب علم- أن أذكر له ما أراه من ملاحظاتٍ وعيوبٍ لا يَسلَم منها البشر! فأكبرتُ هذا منه، وأفادني بموقفه هذا درسًا عظيمًا في تلمّس الكمالات، والاعتراف بالنقص.

المهم أني قلتُ له: لا يحضرني شيء الآن، لكن دعني أنقلُ لك ملاحظةً سمعتُها من أحدِ الإخوة، فلما ذكرتُها له؛ بيّن لي عذرَه فيما انتقده عليه ذلك الشخص، ودعا له، وشكره، ثم سألني عن مستوى هذا الأخ الناصح العلمي، وليس عن اسمه؟ فاستغربتُ سؤالَه هذا! فقال: أريد أن أُهدي له هديةً تليق به، ولأعبِّر عن شكري له على ما قال، بغضّ النظر عن دقّة فهمه لما جرى، فأخبرتُه أنه طالب علم يدرس في كليةٍ شرعيةٍ، فذهبنا جميعًا إلى إحدى المكتبات، فاشترى كتابًا تساوي قيمته الآن ٤٠٠ ريال في التخصص نفسه الذي يدرس فيه ذلك الأخ الذي نقلتُ نصيحتَه، فازداد عجَبي من هذا الصديق أكثرَ وأكثر!

ثم وجدتُ -بعد ذلك- مِن فِعال السـلف ما انطبق على حاله، فهذا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر يقول: قال لي بلال بن سعد: «بلغني أن المؤمنَ مرآة أخيه؛ فهل تستريب من أمري شيئًا؟!»[1].

وأبوهريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «المؤمنُ مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»[2]، ويُروى هذا الحديثُ مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظ: «**المؤمن مرآة المؤمن**»[3]، فالإنسان إذا وقف أمامَ المرآة رأى صورتَه الحقيقيةَ، بما فيها من حَسَن وسَيِّئ؛ لأن المرآة تعكس صورةَ الشخص بحُسنها وقُبحها، والإنسانُ ربما لا يستطيع أن يعرف نفسَه، ولا يَرى نفسَه جيدًا، إلا من خلال رؤية أخيه المسلم الذي هو مرآة له:

فالعينُ تُبصرُ فيها ما دنا ونأى

ولا ترى نفسَها إلّا بمرآةِ

فمَن منّا يملك الشجاعةَ ليبادر إلى خاصةِ إخوانه الذين يخالطهم بكثرة، ويراهم أو يحادِثهم كما يَرى المرآة، ليسألهم عن عيوبه وجوانبِ النقص فيه، ولا ينتظر أن يأتي أحدٌ لينصحه، فإن هذا قد لا يَجرؤ عليه إلا القليلُ من الأصدقاء؛ خشيةً من تَبِعات هذه المبادرة بالنصيحة، إذ النُّصح لا يتقبله، ويحتفي به إلا النوادرُ من الأصحاب؛ لأن النصيحة تعني الكشف عن العيوب!

ومن المتفق عليه أنه لا أحدَ منّا يخلو من نقص وعيب، على حدّ قول الحريري:

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص٣١٢).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم٢٣٨).

(٣) رواه أبوداود (رقم٤٩١٨)، وحسّن الحافظُ ابن حجر سندَه في بلوغ المرام (رقم١٥٤٩).

مَنْ ذا الَّـذي ما ســـــاءَ قَـــط

ومَـنْ لــه الحســـــنَى فقَـــط؟!

فمن العقل أن نفتح الباب، ونمهّد الطريقَ لخاصّة أصحابنا ليقوِّموا، ويقيّموا مــا يرونه منّا، خصوصًا مَن يكثــر اختلاطُه بالناس، ويتصدى لنفعهــم، فإن مظنّة الخطأ من هذا النوع أكثر؛ لكثرة ملابســتهم للناس، ولتنــوع المواقف التي تقع من الآخرين تجاههم، ففيهم الجاهلُ والصغيرُ وصاحبُ الحاجة، ممن يُتوقع منهم صدور ما يستفزّ العاقل!

ومن المهم -ونحن في ميدان (المرآتية)- أن يحرص الناصحُ على لزوم أرفع درجاتِ الأدب، وحُسْنِ اللفظ عند التعبير عن المراد، مراعيًا الوقت والحالَ الأنســبَ لبذل النصح، وعلى المنصوح أن يكون واســعَ الصدرِ لتَلَقِّــي الخطأ، والتنبيهِ على الزلّة، وأن ينظــرَ إلى هذا التنبيهِ والنصحِ على أنه خطوة إلى الأمام في ســبيل التخفّف من العيوب، بل ينبغي أن يُشعِر الناصحَ بالامتنان على نصحه وتنبيهه؛ لأن هذا سيشــجعه في المســتقبل على الاســتمرار؛ حيث رأى أنك تجاوبتَ معه، ولــو رأى عكس ذلك فسيُحجم عن النصح.

ومِــن توفيق الله للمنصــوح أن ينظر إلى كلامِ الناصــح بما نظر إليه الخليفــةُ الصالح عمر بــن عبدالعزيز على أنها هديّــة، حين قال: «رحم الله من أَهدى إليّ عيوبي»، وأنه يريد له الكمال الممكن، وســيجد للنصح لذةً أخرى، وســيتلقاها بنفسٍ رضيّةٍ، وسيُدرك أن الأخ الحقيقيَّ هو مَن صدَقَه لا مَن صدّقه، وأن الأخ للأخ كاليد لليد، لا غنى لها عن الأخرى، لا حرمنا الله مرايا الصدقِ من إخواننا.

كسوف الأخلاق

١/٦/١٤٣٦هـ

تَذكرُ بعضُ كتبِ الأدب أن الخليفةَ العباسيّ المأمون كان في مجلســـه، فنادى بالخادم: يا غـــلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانيًا، وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي، وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب؟! كلما خرجنـــا من عندك تصيح: يا غلام، يا غـــلام، إلى كم: يا غلام؟! فنكس المأمونُ رأسه طويلًا، يقول الراوي: فما شككتُ أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ، فقال:

يا عبد الله، إن الرجل إذا حسُنتْ أخلاقُه ساءت أخلاقُ خدَمه، وإذا ســاءت أخلاقُه حسنت أخلاقُ خدمه، وإنّا لا نستطيع أن نُسيء أخلاقَنا لنُحسِن أخلاقَ خدَمِنا[1].

والمأمون بهذه الإجابة يريد أن يوصل رســـالةً مضمونها: إنني لستُ مســـتعدًّا أن أتنازل عن مبادئي وقِيَمي لأن الطرف الآخر أساءَ أخلاقه! أو بعبارة أخرى: أعاملُ النـــاس بأخلاقي لا بأخلاقهم، وإلا لهويتُ إلى دَرَكٍ بعيد.

---

(١) المستطرف (ص١٢٨).

هذا النوع من الناس، الذي يُصاب بـ (كســـوف أخلاقي) جزئيٍّ أو كليٍّ، لا ينفك الإنســـانُ من التعامل معهم، إنْ اختيارًا أو اضطرارًا، وقد يَجِـــد منهم ما يُثير الحفيظة، ويُخْرِجُ عـــن الطَّور، فهو هنا في حاجة لضبط نفسه، والحفاظِ على المبدأ الذي هو جزءٌ من شخصيته وسلوكه.

يقول أحدُ الإخوةِ: كان عندي ســـائق، وتعاملتُ معه بما أعتقده من مبادئ وقناعات راســـخة يمليها عليّ ديني أولًا، ثم ما أعلَمُه من ســـيرة قـــدوتي الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع الخـــدم وأمثالهم؛ فوجدتُ منه جحودًا ونكرانًا للجميل بعد مدةٍ من الزمن، فلامني بعضُ الأصدقاء على إحســـان الأخلاق معه، وأن هذا النوع من الناس لا يَصلح معه الفضل، بل الذي يناسبهم العدلُ والحزمُ، خاصةً في ظل تواصل السائقين والخدم وأضرابهم عبر وســـائل التواصل، ونقلهم تجاربِ بعضهم في أســـاليب الابتزاز المختلفة لمكفوليهم، وممارســـة ما يســـمى (ليّ الذراع)؛ ليضطر الكفيلُ إلى الاستجابة لمطالب رفع الراتب، وغيرها من المطالب المعروفة.

وفي المقابـــل، وجد صاحبُنـــا تأييدًا من بعض أصدقائـــه، وقالوا له: لا تتنازل عن مبادئك لأجل هذا الكسوف الأخلاقي من قِبَل هذا العامل أو السائق، ولكن عليك بالاعتدال وعدم الإفراط.

فأيُّ الفريقين أولى بالصواب؟!

إن المتأمل للسيرة النبوية الشريفة، التي تنوعت فيها المواقفُ النبوية، مع العدوّ والصديـــق، والصغير والكبير، والموافِـــق والمخالف؛ يجد أن الهدي العام الذي ســـلكه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمومًا هـــو: امتثال ذلك التوجيه الربـــاني: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩]،

وأن ما ســوى ذلك هو حالات اســتثنائية، وما خــبَرُ فتح مكة إلا أكبر شاهد على ذلك.

ويمكن التأكيد على ما ذكره الصديق المؤيِّد بأنه قد لا تحْسُـــن المبالغة في الإكرام الذي لم يَعتدْ عليه هذا النوعُ من الناس، ما قد يَشْــعرُ معه هذا الخادمُ أو الســائقُ أنه حــقٌّ واجبٌ متعيّنٌ على الطــرَف المقابل، ثم يبدأ معه برفع ســقف المطالِب التي لا تُطاق، مستغلًّا هذا الواقع الذي صار الحصول فيه على خادمٍ أو سائقٍ مناسِبَين من الأمور الشاقة والمرهِقة.

وبكل حال، فلكلّ حالةٍ لبُوسُها، والعاقلُ مَن قدّر الأنسب والأوفق في الأســلوب، مع المحافظة عــلى أدنى درجات التــوزان الخُلُقي، وألا يَحمِلنا نَزَقُ هذا النوع مِن لؤماءِ الأخلاق أن نترك مبادِئَنا الراسخة.



شوكة قادت إلى الجنة

٧/ ٦/ ١٤٣٦هـ

الجنــة هي مبتغى كلِّ مؤمن، وغايةُ كل مســلم، ولا غرو! فبدخولها تنزاح الهموم، وتتبدّد المخاوف.

وحينما يتحدث أحدُهم عن الجنّة، فلا يكاد يتراءى للمستمع إلا تلك الصور العظيمة الجليلة من الأعمال والتضحيات الكبار، فتتراءى له تلك الأقــدامُ المنتصبةُ في هجعة الليل، وهي تتغنــى بآيات الكتاب، وتناجي الرب الكريم، وتلوح له تلك الشــفاه اليابســة، والبطونُ الضامرةُ مِن أثَــر الصوم في حرّ الهواجر، ويتخيل صورَ تلــك النفوس التي أُزهقت، والرقابَ التي طارت في ســبيل الله، وتتجلى لــه صورةُ ذلك العالِم الذي طــوّف البلاد، وجاب البلدان تحصيلًا للعلم، وجمعًا له، وتصنيفًا ودعوةً وتعليــمًا للناس! ولعمر الله إنها لأعمال جليلة، يوفّق الله لها من شــاء من العباد.

وكــون هذه من مهور الجنة لمن صدَق حــقٌّ لا ريب فيه، فإن الكريم الوهاب تبارك اسمُه، وجلّ ثناؤه جعل لدخولها أسبابًا أخرى يسيرة على من يسّرها اللهُ عليه، وبعضُها يكاد يتحقق له بشكل يومي.

لنتأمل في هـــذا الحديث حيث يقول الرســـول ﷺ قال: «**مرّ رجلٌ بغصنِ شجرةٍ على ظهر طريق، فقال: والله لأنحينّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم؛ فأُدخِل الجنة**»[1].

وقال ﷺ: «**إن رجلًا كان فيمن كان قبلكم، أتاه الملَك ليقبض روحـــه، فقيل له: هل عملتَ من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنتُ أبايع الناسَ في الدنيا، وأجازيهم، فأُنظِر الموسر، وأتجاوز عن المعسر؛ فأدخله الله الجنة**»[2]، وأمثال هذه النصوص كثير.

في واقعنـــا تجدّدت ســـبلٌ كثيرةٌ لنفع الخلق، ورفـــع الأذى عنهم من خلال التقنية الحديثة، التي ســـهّلت الوصول إلى الناس بسرعة مذهلة، يمكن للمرء أن يسهم فيها نشرًا وحثًّا.

أعرف أحدَ الشـــباب -يعمل في قطاع المقـــاولات- وفي مدينة بعيدة عن العواصم، حُبّبَ إليه دعوةُ الجاليات، وامتلأ قلبُه حدبًا وشـــفقةً على هـــذه الملايين التي تـــأتي لبلادنا، ولا يرجعون بدعـــوةٍ لأغلى ما نملك، وهو الإســـلام! فواجهتْه عقبةٌ، وهي: أنه ليس عنده علمٌ شرعيٌّ يؤهّله لذلك! لكنه استطاع تجاوز ذلك بتســـخير ما يملك من قدرة جيدة على التواصل مع المؤهَّلين دعويًّا وماليًّا، من مكاتب دعوية، وتجار وغيرهم، فبدأ يعمل بجهد دؤوب، واستعان على تسويق مشروعه بمعرّفات بعض المشـــاهير في تويتر، وانطلقت حلقاتُ دعوة الجاليات في بعض القنوات ذائعة الصيت؛ فأســـلم على يديه حتى الآن آلاف الأشخاص مِن مختلف

(١) رواه مسلم (رقم١٩١٤).

(٢) رواه البخاري (رقم٣٤٥١)، ومسلم (رقم٢٩٣٤).

الجنســيات، ويخبرني أن طموحَه أن يسلم على يديه ٣٠٠ ألف شخص! ويزداد عجبك أنه يدير مشروعه وهو في مدينته التي يســكنها بعيدًا عن ضجيج المدن الكبرى.

هذا العمل من حيث هو عملٌ جليلٌ، ولكن مرادي من الاستشــهاد به، هو تســخير هذه الوســائل التي جعلت عملًا كهــذا -مما يحتاج إلى ملايين الريالات في العقود الماضية، صار بفضل الله ثم هذه التقنية- يدار بسهولة، وبأقل كلفة.

ومن صور هذه الأعمال الجليلة التي تدار بســهولة: تســويق أخبار المشروعات الخيرية المتعثرة عبر وسائل التواصل، فكم نفع الله بها، وكم قُضيت مشروعات بسبب تغريدة أو واتس أب!

وبالجملة، فمن امتلأ قلبُه شــوقًا للجنة، لم يستقلّ أي عملٍ يقوم به، ولو كان في نظر الناس صغيرًا؛ لأنه يدرك أن أي حســنة ســتضاف إلى رصيده الأخروي، مســتحضرًا قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧].



تعلمتُ من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١)

١٣/ ٦/ ١٤٣٦هـ

الذين منَّ الله عليهم بالجلوس عند شـيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمـين (ت١٤٢١هـ) فترةً مـن الزمن، وإن قلّت، أو اسـتمعوا إلى دروسه المسـجّلة؛ أدركوا أنه لم يكن مجرد عالمٍ يُلقي دروسَه، ثم ينصرف إلى حيث يبدأ الدرس التالي، بل كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنموذجًا للعالم الرباني؛ الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، ويربي بفعله قبل قوله.

وهذا العلَمُ الماجدُ كُتِبَ عنه الكثير شـعرًا ونثـرًا، لكن الكتابة التي تُعْنى بإبراز معـالم القدوة والتأسّي به لا تزال قليلـة، مقارنة بما كُتب في الجوانب الأخرى، ومقارنة بمنزلته العلمية، ومكانته في الأمّة.

ولا ينبغي في ترجمة مثله أن تُختزل سـيرتُه فيما يشـترك معه كلُّ من له أدنى مشـاركةٍ في التعليم -مِن ذِكر المولد والوفاة والأشـياخ والتلاميذ والمصنَّفات- بل ينبغي تسـليطُ الضوء على الجوانـب الربانية ومواضع القدوة في شخصيته، فهي الأهم.

وأنا حين أكتب فلا أزعم أنني من أكثر الناس قربًا منه، أو جلوسًا بين يديه، ولا بالذي يســـتطيع كتم آثار العاطفة والمحبة التي تجذّرت عروقُها فيَّ، وكان يسقيها بماء النصح والتوجيه، والرعايةِ الأبوية لتلميذه الصغير، من خلال علاقةٍ امتدت أكثر من عشر سنوات، كلا، لكنني أظنّ أن تلك السنوات أضحتْ مشجِّعةً على الكتابة عن بعض تلك المعالم المؤثّرة، التي يلمســـها كلُّ من عاشره، وتتلمذ له، ولحظَ مفاتيح التميز في شخصيته، لعل الله تعالى أن ينفع بها، وهي إشـــارات فحسب؛ إذْ التفصيل والبسط لا تناسبه أمثال هذه المقالات.

ولعلي ألخص هذه الوقفات في المعالم الآتية:

المعْلمُ الأول: وضوح الهدف:

فلقد كان الهدف الأكبر عند شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو طلبُ العلم وتعليمُه، واضحًا في نفســـه من بواكير شبابه، ظهر ذلك في مواقف كثيرة، لعل من أشـــهرها: اســـتعفاؤه من القضاء حين عُرِضَ عليه من قِبَلِ مفتي الديار السـعودية في وقته الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣٨٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ وألحّ على شـــيخنا في ذلك، بل أصـــدر قراره بتعيينه رئيسًـــا للمحكمة الشرعية بالأحســـاء، فطلب منه الإعفاء، وبعـــد مراجعات واتصالات سَمح المفتي بإعفائه من منصب القضاء.

ولا أحســـب هذا الموقف من شـــيخنا إلا لأنه يرى أن للقضاء -مع شرف مكانته- تبِعةً قد تشغله عن هدفه الذي رسمه لنفسه -وهو تعليم العلمِ الذي بذل جهدَه في تحصيله- والعلم يحتاج إلى تفرّغ كثير، وصفاءً في الذهن، لا يتأتّى في الغالب للمنشغل بالقضاء.

ومن ذلك: أنه لما ازدادت شــهرتُه -خصوصًا بعد ســنة ١٤٠٠هـ- وكثر قاصدوه من الآفاق؛ تخفّف من إلقاء المحاضرات العامّة جدًّا، وركّز على دروسه العلمية في الجامع، وصار لا يشارك إلا في حضور مناسبات تكريم حفّاظ القرآن في منطقة القصيم فقط، اللهم، إلا إن وافق ما سبق وجــوده في اجتماعات هيئة كبار العلماء في الطائــف والرياض، أو وافق وجوده في مكة المكرمة، كل ذلك انجماعًا منه على دروســه، وتركيزًا على تحقيق هدفه الذي عاش من أجله.

وثمــرةُ هذا المعْلم ظاهرةٌ جلية في حياتــه، تمثلت في أكثر من ٥٠٠٠ ســاعة صوتية -فضلًا على ما لم يُســجل من قبل أو ضاع-، استثمرت لاحقًا في تزويد قناة فضائية حملت اســمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إضافة إلى انتفاع عدد كبير من طلاب العلم -من مختلف بلدان العالم- الذين تخرّجوا به، ونفع الله بكثير منهم.

إن هذا المعْلم في شخصية شــيخنا -رحمه الله- قد يَغيب استحضارُه عن بعض طلاب العلم، وهو في بدايات حياته ونشاطه، فقد يبدأ في كلية شرعية، بل قد يتخرج فيها، والهدف عنده غيرُ واضح، فتذهب عليه زهرةُ عمره في التنقــل بين مجالاتٍ خيرية متنوعة، وهي وإن كانت فاضلة؛ إلا أنها لا تزال تَنْحتُ من شــجرة زمانه، وتَذْهَبُ أيامُه وهو لم يبرز في سبيلٍ من هذه السُّبل، مع قدرته على التميّز.

أعرفُ أحدَ طلاب العلم -وهو من طلاب شــيخنا- ممن حدّد هدفَه بطلب العلم، عرَضَــتْ عليه عددٌ من الجهات الخيريــة إغاثية، وتعليمٍ للقرآن، وأمثالها- عرضت عليه الانضمام لها؛ فاعتذر، فسُئل عن السبب؟

فقال: حدَّدتُ هدفي مبكّرًا، وليس لديّ من الوقت والقُدُرات ما يمكنني معــه القيام بها جميعًا، فاخترتُ ما حُبّب لي مــن طلب العلم، والرغبة في تعليمه ونشره، فتحقق له ذلك فيما أحسب.

والعِبرة من هذا المعْلَم في شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أن يحدِّد الإنســـانُ هدفَه مبكّرًا، وينظر في المجـــالِ الذي يُتقنه، ويبدعُ فيه، وليصحّح النيةَ في نفع نفســـه وأمته، وليبشر بالتوفيق، وصدق الله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[الأعراف: ١٦٠].



تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٢)

١٩/٦/١٤٣٦هـ

أشرتُ في الجزء الأول من هذه السلسلة (تعلمت من ابن عثيمين (١)) إلى أن (وضوح الهدف) كان من المعالم البارزة في شخصية شيخنا رحمه الله-، وأتابع في هذا المقال ذكر أهم مفاتيح التميز في شخصيته، ومنها:

المعْلَمُ الثاني: الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه:

الثبات على المنهج الحقّ مما امتدح الله به خيارَ هذه الأمة، فقال عن الصحابة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب:٢٣]، وهو أحدُ صفات الأئمة الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

وهكذا كان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلم يغيّر، ولم يبدّل، بل صبر، وثابر، موقنًا أن الحقّ في هذا الدين بمصدريه العظيمين: الكتاب والسنّة، على فهم سلف هذه الأمة، الذي نقله إلينا، ودعا إليه - على مرّ القرون- أئمةٌ

كبارٌ، أوذوا في ســـبيل الدعوة إلى هذا المنهج، فمنهم من ضُرِبَ، ومنهم من غُرِّبَ عن وطنه، ومنهم من سُـــجِن، ومنهم من قُتِل، في سلسلة من الابتلاءات التي سطّرها التاريخ بأحرفٍ من نور.

وشـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدرك في مقتبل شـــبابه انتشـــار عددٍ مـــن المذاهب والدعـــوات المنحرفة، التي صَرفت عددًا غير قليـــل من لِداته وأترابه في ذلك الوقت، أو أثّرت فيهم سلبًا من جهة القناعة بالطريق الذي سلكه، وهو طريق العلم والتعليم، بل ووُجِد من المنتســـبين إلى الإســـلام -في بعض البلاد- من يُعلن أن سبب تأخرنا هو التقيّد بالإسلام! عياذًا بالله.

وشـــيخنا وإن لم ينله ما أشرتُ إليه من أذى حسّيٍّ مباشر -كالسجن والـــضرب- إلا إنه ابتُلي ببعض التُّهم في عقيدتـــه في أول القرن الهجريّ الحالي، التي كان منبعُ بعضها الهوى والحســـد، كدّرت عليه خاطرَه فترةً من الزمن، وكان أثر تلك القالةِ يُرى على وجهه، ويُلحَظُ في نفوس بعض النـــاس، حتى أفضى مرةً إلى أحدِ طلابـــه في كلية الشريعة وأصول الدين -التي كان يدرس فيها- وقال: يا فلان، سيظهرُ الله الصادق منّا. حدثني بذلك صاحب القصة الذي خاطبه شيخُنا بتلك الكلمات.

وهذا ما كان، فلم يزدد شيخُنا بعدها إلا رفعةً وظهورًا حتى توفاه الله وهو أحد أئمة المســـلمين في العلم، وأحد المرجعيات العلمية البارزة في الفتوى، وقصَدَه الناس من كلّ مكان في العالم.

وأحســـبه -بعد تلك الحادثة وما ســـبقها- ممن انطبقت عليه مقولة الإمام الشـــافعي -حين ســـأله رجل فقال-: يا أبا عبـــدالله، أيما أفضل للرجل أن يمكّن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يُبتلى.

ومن صور ثباته على منهجه -وهو وثيق الصلة بوضوح الهدف عنده: أن شيخنا أدرك في بواكير شبابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً من الصوارف الدنيوية التي بهرتْ زهرتُها وبريقُها فئامًا من النــاس، فآثروا الوظائف والتجارة على ما كانــوا فيه من الاشــتغال بالتعلّم والتعليم، وهذا لا يُــذمّ به صاحبُه بطبيعة الحال، لكنّه مما يمدح به من آثر الفاضل على المفضول، وصبر على تحصيل ثمراته.

ومَنْ تتبّع مصنفات شيخنا، أو سمع مجالسه العلمية؛ رأى أن الحديث عن هذه القضية يتنوع، ويظهر في كلامه بأســاليب شتى، تُلْمسُ منها أثرُ التجربة بهذه المسألة، وإن أنسى فلا أنسَ قسمات وجهه، وتأثّره وهو يعلق -في شرح الواســطية- على مقالات الفِرَق المنحرفة في أبواب الصفات، وكيف ضل من ضلّ منهم مع قوة ذكائه، وسعة اطلاعه، ثم ختم كلامه بسؤال الله الثبات على الحق، وألا يزيغ القلوب بعد هداياتها.

وفي هذا المعْلمِ عبرةٌ، فلأن كانــت الصوارف في عهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرة، فهي في عصرنا اليوم أضعاف ما كانت عليه في عهده؛ من مروج العهود، وازدياد التفرق، وكثرة أسباب الفتن، والتباس الحق بالباطل على كثيرين، ما يوجب على العبد مزيدًا من الضراعة واللجوء إلى الله بالهداية والثبات، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٣)

٢٥/ ٦/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ الثالث[١]: العناية بالقرآن حفظًا وفهماً وعملاً:

في بدايات ما يُعرف بـ (الصحوة) في أوائل القرن الهجري الحالي، كانت العنايةُ بالحديث الشريف -تحقيقًا ونشرًا وحفظًا- قد بلغت غايتها، بعد عقودٍ وربما قرون من الركود العلمي العام، وفي الحديث بشكل أخص، وكان من مظاهر ذلك: إقبالُ عددٍ كبير من طلاب العلم على هذا التخصص، هذا الإقبال كان عند كثيرين على حساب الاهتمام بالقرآن الكريم من حيث الفهم والتدبر، فكان شيخنا يلحظ ذلك في الجو العام لعموم الحركة العلمية في ذلك الوقت، ويلحظه في عددٍ من طلاب العلم الذين قصدوه من آفاق شتى، وكانوا يَحضرون دروسه.

(١) أشرتُ في الجزءين الأول والثاني من هذه السلسلة إلى معلمين من معالم التميز في شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهما: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

هذه الملاحظة المستــمرة جعلتْ شــيخَنا لا يفوّت التنبيه على العناية بالأصــل الأعظم للدِّين، ومن تلكم الكلمات التي لا أزال أتذكرها تلك المقابلةُ التي أُجريَت مع شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن سلسلة (على طريق الدعوة) -قبل عشرين ســنة أو أكثر- وكان من أبرز ما رسخ في ذهني كلامُه عن هذه المسألة بشكل يلمس منه السامعُ خوفَه من اختلال الميزانِ عند بعض طلاب العلم، حيث تجده يُمضي الأيامَ والســنين في علم الحديث، ثم إذا جاء القرآنُ وجدتَه مقصِّرًا في مدارســة معانيه، وتدبر آياته! وكان شيخنا قــد أبدى فرَحَه بتلك العناية بالسُّــنة، لكنه لم يُخــفِ ألمه من التقصير في جانب العناية بتفسير كلام الله وتدبره.

وأما عنايتُــه وتوجيهه طلابَ العلم لتدبره؛ فكُتبه وتوجيهاته طافحةٌ بهذا، وأنتَ حــين تقرؤها تجدها كلــماتٍ فيها روحٌ، ونابعــةٌ من قلبٍ مجــرّب، قد تكون قصيرة، وســهلة في تراكيبها، لكنــك تلمس فيها لغةَ الصدق والنصح، كقوله: «اللهَ الله يا إخوان، بتدبر القرآن وتفهم معانيه، والتقرب إلى الله تعالى به، والعمل بما فيه، فهو -والله- سعادتكم في الدنيا والآخرة».

ويلحظ طالبُ العلم هذا المعنى حاضرًا في تعليقاته على الآيات، سواء فيما قصد به تفسير كتاب الله، أو كان ضمن كتابٍ مصنَّف وردت فيه آيةٌ من الآيات، ومن ذلك حين علّق على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[القمر:٢٢]، قــال: «أي: يسّر معانيه لمن تدبّره، ويسّر ألفاظَه لمن حفظه، فإذا اتجهتَ اتجاهًا سليمًا للقرآن للحفظ يسّره اللهُ عليك، وإذا اتجهتَ اتجاهًا حقيقيًّا إلى التدبّر وتفهّم المعاني يسّره الله عليك ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا

ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ و(هل) للتشويق، يشوّقنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن ندكر القــرآن، فنتعظ به، جعلنا الله ممن يتلونه حق تلاوته لفظًا ومعنى وعملًا، إنه على كل شيء قدير»[1].

وهذه العناية بهذا الأصل العظيم، ظهر أثرُها على تفسيره لما تيسر من القرآن، وعلى فتاويه، وكلماته، فضلًا على ما كان عليه شيخُنا من ملازمة وِردِه اليومــي، فقــد كان يختم كلّ عشرة أيام في غير أيام المواســم، وفي رمضان يختم كل ثلاث.

ومن صــور عنايته بهذا الأصــل العظيم: أنــه كان إذا دُعي لبعض المناســبات طلب من أحــد الحضور أن يقرأ آيات مــن القرآن، ثم علّق عليها، وهكذا دأبه في لقائه الأسبوعي، فإن تعليقَه على جزء عمّ المطبوع، إنما هو مِن جمْع ما قاله في تلك المجالس، فخرج منها ذلك الكتاب الذي نفع اللهُ به نفعًا كثيرًا.

إن هذا المنهج العملي الذي سلكه شــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دروسه وعموم المناســبات التي يحضرهــا، كان له أثرٌ في كثير ممن تلقّــى عنه، في العناية بالقرآن، مــع اختلاف تخصصاتهم الأكاديميــة، أو مناصبهم الوظيفية، ولنِعْم الإرث هذا.

وخليق بطلاب العلم -مهــما كان تخصصهم الأكاديمي الدقيق- أن يكون لهم نصيبٌ كبيرٌ من العناية بكتاب الله، فهو أصلُ العلوم ومنجمها، وأُسّها وأساسها.

---

(١) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد (ص٢٨٤).

وإن ممـــا يُزري بطالب العلم: أن يكون مقـــصّرًا في حق القرآن تلاوةً وفَهمًا، بحجة أن تخصصه ليس في (قسم القرآن)، أو (القراءات)! فالقرآن كتابٌ يتجاوز كل التخصصات. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٤)

١/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلَمُ الرابع[١]: حبّه لنشر العلم، واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة:

كان يمـــرّ بي في بعض التراجم في الثناء عـــلى أحد العلماء: «أن أوقاته معمـــورةٌ ببث العلـــم»، أو «ليس له همّ إلا في نـــشر العلم»، ونحو هذه العبارات، التي رأيتُها عيانًا في حياة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لقـــد كان حبّ العلم وتبليغُه يَسري في عروقـــه، ولا تحين فرصةٌ إلا ويهتبلها في نـــشره، مع التزامٍ قـــوي بالوقت الـــذي خصّصه للناس في الإجابة عن أسئلتهم في الهاتف.

ومـــن صور هذا الحب لنشر العلم: أنه كان إذا ســـافر من بلده عنيزة يضع (المجيب الآلي) الذي يرد على الاتصالات -وذلك قبل اســـتعمال

(١) أشرتُ في الجـــزء الأول والثاني والثالث من هذه السلســـلة إلى ثلاثة من معالم التميز في شـــخصية شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفســـه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

الجوالات-، ويبيّن رقــم الاتصال الجديد في المنطقــة التي ذهب إليها، ســـواء في مكة المكرمة أم الطائف أم الرياض، مع أنه كان يسعه الاكتفاء بما يتلقاه من أسئلةِ الناس واستفتاءاتهم في تلك المناطق التي يسافر إليها، لكنها الدِّقة والالتزام، والشعور بمهمة البلاغ عن الله ورسوله.

وأتذكر مرةً أنه زاره بعضُ القضاة في إحدى زياراته للرياض-وكنتُ شاهدًا لهذا الموقف في منزل أخيه الشيخ عبدالرحمن بن صالح العثيمين- فطلبوا منه أن يخصِّص كل الوقت لهم -أي وقت العصر-، وكان شيخنا قد أحــال المتصلين على هاتفه على ذلك الوقت الــذي زاره فيه القضاة، فقال: لا أســتطيع ذلك، وقد أحلتُ الناس على هذا الوقت، ولكن لكم سؤال وللمتصلين سؤال. فعجبتُ من هذه الدقّة! والحرص على الالتزام بما سجّله، ووعد به.

وكان من عادته إذا جلس في مجلس عام، أن يطلب من أحد الحضور -وخاصة من صغار الســنّ- أن يقرأ القرآن، ثــم يعلّق على الآيات، ثم يستقبل الأسئلة.

ومن أشدّ المواقف تأثيرًا، التي شاهدها الملايين من الناس، وسمعوها، تلكــم الأيام الأخيرة التي درّس فيها في المســجد الحرام في رمضان عام ١٤٢١هـ، والتي بلغ فيها المرضُ والألم من جســده مبلغه، وكان يؤدي الــدروس بصعوبــة بالغة، وكان الأطبــاء يؤكدون عــلى أهمية راحته، فيخبرهــم أن راحته في التدريس! بل حدّث أحــدُ أولاده أنهم ذهبوا به مرةً في صباح أحد أيام العشر إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة بسبب تردّي صحته، فلما كشفوا عليه، طَلَبَ الرجوعَ به إلى مكّة المكرمة،

فوافق الفريق الطبي بعد إلحاح وضغط من شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ كل هذا كي يرجع إلى مكة المكرمة ليلقي درسه لذلك اليوم.

لقـــد كانت هذه المواقف -وأمثالها كثير- تعـــبّر أبلغ التعبير عن هذه الحال التي كان عليها، يســـوقه -إضافة إلى حب نشر العلم- الخوف من معرّة كتْمه، وهو الذي صرّح بذلك مرارًا، ومن ذلك قوله: «والله نخشى من الفتيا، ولولا أن الإنسان يخشى من كتمان العلم، أو أن السائل يذهب إلى إنســـان جاهل، ويفتيه؛ لكان الإنسان يتوقف عن الفتيا ليَسلَم، لكن من اســـتُفتي وعنده علم فإن عدم إقدامه على الفتيا ليس بسلامة، بل هو عطب»[1].

ولقد رأيتُ أثر هذا البذل والعطاء المتدفق على ســـلوك بعض طلابه، الذيـــن تصدّروا بعد ســـنوات لنفع الناس وإفتائهـــم، وتدريس العلوم الشرعية، فلقد رأى الناسُ منهم بذلًا مشـــهودًا للعلم في كل الوســـائل المتاحة، ســـواء في المســـاجد أم في الفضائيـــات أم في مواقـــع التواصل الاجتماعي وغيرها، فبارك الله فيهم، ورحم الله شـــيخنا، وجزاه عنا خير الجزاء، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



(١) دروس الحرم المدني (٤/ ٤).

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٥)

٧/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلَمُ الخامس[1]: التثبت في النقل والحكم:

النصوص الواردة في التثبت كثـيرة، وقد خوطب بها جميع المؤمنين؛ لخطورة التعجل في النقل والحكم قبـل التثبت، ويتأكد هذا في حق أهل العلم طلابًا وعلماء.

وأما ما يخصّ منهج شـيخنا في هذا الباب؛ فهو مـن أكثر مَن رأيت تثبتًـا في الأمور كلهـا، وخاصة فيما يتعلق بالمسـائل العلميـة، أو التي تتعلـق بالمنكرات العامة أو الخاصة، وحديثنا هنا عن المسـائل العلمية:

أذكر أن الشـيخ مرةً حصل منه سهو في نِسبة لفظٍ من ألفاظ الحديث إلى البخاري، فذكرَ له أحدُ الطلاب هذا السهو بعد انتهاء الدرس، ولكن الشيخ قال له: تثبت! فرجع من الغد، فذكرَ له الطالبُ أنه تأكد منه، فقال

(١) أشرتُ فيما سـبق إلى أربعة معالم مما تميزت بها شـخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسـمه لنفسـه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

له شـيخنا: هل رجعتَ إلى الكتاب الفلاني؟ قال: لا، قال: فراجعه، فلما كان من الغد قال له: لقد رجعت إلى ذلك الكتاب، فعندها بيّن الشـيخ للطلاب أن أحد الطلاب نبّهه إلى أنه وَهِمَ في عزو ذلك اللفظ للبخاري، وأن الصواب أن الحديث في مسند أحمد، وليس في البخاري.

وهذا المسـلك ظاهر -أيضًا- عندما يسـأله أحدٌ فإنه يستوضح من سؤاله كثيرًا حتى يكون الجواب مطابقًا للسؤال، ومن استمع إلى برنامجه (سؤال على الهاتف) تبين له هذا بوضوح.

ومن مظاهر تثبت شـيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا سُئل عن سـؤال له ارتباط ببعض التخصصـات الطبية أو غيرها؛ فإنه لا يُفتي حتى يتأكد بنفسـه من أهل الاختصـاص، أو يعلِّق الحكم على نظر أهل الاختصاص، مثل جوابه عن أسئلة النساء التي تتعلق بجوانب طبية؛ فيقول: إن قرّر الأطباء أنه لا يضر فلا بأس به، أو يقول: سألنا الأطباء، فذكروا كذا وكذا، وربما سُئل عن بعض الأمور الإدارية، فاتصل بوزارة الخدمة المدنية.

وأذكر مرّة أنه سُئل -وأنا أسمع- عن حكم قطع الإشارة في الأماكن التي لا يوجد بها أي سيارة، في مناطق شبه خالية من الحركة؟ فقال: سألْنا المسـؤول عن المرور؟ فقال: بل يجب عليهم الوقوف ولو لم يكن عندها أحد، فعلى هذا يجب الوقوف عندها.

ومن مظاهر التثبت عند شيخنا: التثبت في الأخبار العامة أو فيما يُطلب منه من إنكار المنكرات، وكذلك فيـما يتعلق بتوثيق الناس (التزكيات)، وقد أكسب هذا المسلك ثقلًا وقوة لكلامه، فبمجرد ما يُنسب الكلام عن الشـيخ ابن عثيمين، اطمأن الناس إلى صحة الخبر، وإن زكّى أحدًا وثِق الناسُ به. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٦)

١٣/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلَمُ السادس[١]: عنايته بالتحصيل العلمي لطلابه:

درجَ عددٌ من العلماء على إلقاء الدرس دون مناقشة، وربما سلك بعضُهم مسلك التعليق على كتابٍ ما، فإن ورد سؤالٌ من الطلاب وإلا مضى الشيخُ حتى ينتهي من كتابه، فلا يَدري مَن الذي فَهِم، واستوعب ممن ليس كذلك! ولم يكن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرتضي هذا المسلك أبدًا، بل كان يرى أن هذه طريقة عقيمة جدًّا!

وقد أكّد -حين سُئل عن وصيته للمعلّم- على أهمية مناقشة المعلّم للطلاب في جوابٍ طويلٍ، أقتطف منه هذه الجملة المعبّرة عن منهجه في

---

(١) أشرتُ فيما سبق إلى خمسة معالم مما تميزت بها شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، و(التثبت في النقل والحكم)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

هذه القضية بوضوح، حيث «مناقشـــة الطلاب فيما ألقاه عليهم ســـابقًا، أمـــا أن يأتي يَقرأ الـــشيءَ عليهم قراءةً، ولا يدري مَـــن فهم ممن لم يفهم! ولا يناقشـــهم فيما مضى! فإن هذه الطريقة عقيمة جدًّا، لا تُثمر ثمرًا، ولا تكون نتيجتها طيبة»[1].

ومـــن صور عنايته بتحصيل الطلاب: حرصـــه على وضوح العبارة، وسهولة الأسلوب في الشرح، وإذا شعر الشيخُ أن بعض الطلاب لم يفهم سألهم، فإن لم يفهموا أعاد.

وكذلك حرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على غرس روح المناقشـــة للمســـائل من غير فـــرض الرأي -فيما يمكن فيه النقاش- وكان أحيانًا يَطرح المســـألةَ على الطلاب، والغالب أنهم ينقســـمون إلى قســـمين -كما هـــو الحال في أكثر الأحـــكام العملية- ثم إن الشـــيخ بعد ذلك يقول لهـــم: دعونا ننظر في دليل هؤلاء وهؤلاء، ثم يبدأ يناقش، ثـــم يرجِّح بناءً على ذلك التحليل والتفصيـــل للأقوال، فيقتنع الطالبُ حينئذٍ من ســـبب الترجيح، ويعتاد على هذه الطريقة.

لقد كان بإمكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يَعرِض الأقوالَ، ويرجّح، ثم يمضي في شرح المســـائل -وهو من حيث إنهاء المتون أسرع للطالب- ولكنه لم يَفعل، وكان كثـــيرًا ما يردِّد في الدرس قاعدةً في هـــذا الباب، وهي: إذا رجّح الإنســـانُ قولًا على قول؛ فلا بد مِن ذِكر سبب الترجيح، والإجابة عن دليلِ القول الآخر.

(١) كتاب العلم (١٠١).

وهذا الأســلوب الذي انتهجه الشــيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أسلوبُ الإقناع والمحاورة؛ اســتفاد منه كثيرٌ من الناس، فضلًا على طلابه الذين لازموه فترةً من الزمن.

وقد كتب أحدُ الطلاب[1] -الذين درّســهم شيخُنا في المعهد العلمي بعنيــزة- مقالًا يتحدث فيه عن موقفٍ حصل له مع الشــيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٣٨٠هـ تقريبًا، وخلاصة الموقف الــذي ذَكَره أنه قال: «كنا ندْرس في الصف الأول المتوســط في المعهد العلمي، وكان الناسُ في ذلك الوقت يتحدثون عن وصول الإنسان للقمر، هل هو ممكن أم لا؟ وهل الحديث عن هذه المســألة ســائغٌ شرعًا أم لا؟ فلما دخل علينا الشيخُ طرح علينا الســؤال الآتي: هل تعتقدون أنهم ســيصلون إلى القمــر؟ قال الطلاب كلهم: لا! يقول الكاتب: إننا قلنا ذلك مجاملةً وهيبةً من الشيخ، وأكثرنا من داخل نفسه متحمّس للتصديق بهذا الخبر، يقول: إن الشيخ لم يعجبه هذا الجــواب مِنّا، واقترَحَ علينا أن نُناقش الأمر؛ فشرع يطرح الأســئلة علينــا واحدًا واحــدًا، وفي أثناء ذلك قام أحدُ الطــلاب، فقال: نعم، يا شــيخ، يمكن أن يصلوا، هنــا توقّعنا أن يَغضب الشــيخُ على الطالب، ويُعاقبه! غير أن الشــيخ التفتَ إلينا، وسألَنا عن جواب زميلنا، وطلب منّا أن نُناقش قولَه، وهل أحدٌ منكم يوافقه على رأيه؟

لقد كانت الهيبةُ من الشــيخ تجعلنا نؤكّد أن زميلنا قد أخطأ، ووهِم، عندها قال الشــيخ: تريدون رأيي؟ فقلنا بصــوتٍ واحد: نعم، ثم ذكر

(١) هو الدكتور عبدالله الغذامي.

الشـــيخُ رأيَه في المسألة... إلخ[1]، فيعلّق هذا التلميذُ قائلاً: لقد استفدتُ من هذا الموقــف فائدةً عظيمة، وهي: التربية على الروح الحوارية، حيث يَفتح مجـــالًا للتفكير والتدقيق والتمحيص، ومشـــاركةِ كلِّ الأطرافِ في معالجةِ الإشـــكال، وتحريـــكِ عقولهم في البحـــث.. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



(١) مقـــال د. عبدالله الغذامـــي ١٦-١٧ في ملحق الأربعـــاء الصادر عن جريـــدة المدينة ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٧)

١٩/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلَمُ السابع[١]: حِرصُه على تطبيق السنة في أموره كلها:

لم يكن شيخُنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّمًا بقوله فحسب؛ بل كان يَقرن ذلك بالعمل، والحرص على تطبيق السُّنن وإن دقّت؛ فصار عالمًا ربانيًّا.

وأنت حين تقرأ له كلامًا في هذا الموضوع؛ فإنك تجد له وقعًا كبيرًا في نفسك؛ لعلمك أنه يطبّق ما يقول، ومن ذلك قوله: «العلم من دون تربية يكون ضررُه أكثر من نفْعه، لكن مع التربيــة يكون العلم مؤديًا لنتيجته المقصـــودة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران:٧٩]، هذه فائدة العلم؛ أن يكون الإنسان ربانيًّا، بمعنى مُرَبِّيًا لعِبادِ الله على شريعة الله»[٢].

---

(١) أشرتُ فيما ســبق إلى ســتة معالم مما تميزت بها شخصية شــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رســمه لنفســه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهــمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، و(التثبت في النقل والحكم)، و(عنايته بالتحصيل العلمي لطلابه) وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

(٢) انظر: كتاب (العلم) للعثيمين (ص١٨٥).

والأمثلة التي تُجلّي هذه الحقيقة كثيرة:

منها: أنه حينما يُقبل على المسجد ومعه أحدٌ يتحدث، فإنه عند دخوله المســجد يقدِّم اليمنى، ولا يترك دعاء الدخول، ولو كان ذلك الشخص يتحدث، وكذلك عند الخــروج، ولا أذكر أنني رأيتُه يدخل الصلاة من دون سِواك.

ومنهــا: أنه كان حريصًا على تنويع الســنن التــي وردت فيها بعض العبادات، كما في صفة التسبيح بعد الفرائض، وهو بذلك يترجم ما يقرره في دروســه في فوائد تنويع التطبيق: حفظ العلمُ، وتطبيق الســنة، وكسر الإلف الذي يُذْهبُ الاستحضار للأذكار.

ومنهــا: أنه كان يحرص على أداء الســنة الراتبة في بيتــه ما لم يَعرض عارض.

المعْلمُ الثامن: حرصه على الوقت:

وهذا شيءٌ مُجمَع عليه عند كل مَن عرَف شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد رأيتُ أثرَ هذا المسلك في بعض طلابه الذين نفع اللهُ بهم فيما بعد.

ومِن مظاهر هذه العنايــة بالوقت عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترتيب وقته وجدولِه اليومــي، وضبطه لتوقيت الــدروس، ولعدد الأســئلة التي تَعرِض في الدرس، وقد كان غالبًا لا يســمح بأكثر من ثلاثة أســئلة عن الموضوع الواحد.

ومــن ذلك: عنايته بضبط المواعيد، وكان يربي طلابَه على ذلك، ومن ذلك ما حدّث به فضيلةُ أ. د. عبدالله الطيار: دعاني الشيخُ عام ١٤٠٣هـ

لتناول وجبــة الغداء، وقال لي: الموعد الســاعة الثانية ظهرًا، فحصل لي ظرفٌ جعلني لا أصل إلى الشــيخ إلا في الساعة الثانية وعشر دقائق، فلما وصلتُ وإذا بالشــيخ راكب الســيارة، فقلت: إلى أين يا شيخ؟! فقال: الأولاد عندكم، وتغدَّوا معهم، فقلت: يا شــيخ، عفا الله عنك، نحن لا نريد الغداء، وإنما نريدك أنت، فقال: هذه المرة سأعفو عنكم، ولكن المرة الثانية لا تتأخر(١).

ومــن مظاهر حرص الشــيخ على الوقت: أن فــترةَ ذهابِه من البيت إلى المســجد كانت عامرةً بقراءة حزبه من القرآن، ولم يكن يسمحُ لأحد بنقله في سيارته، وأما في طريق عودته من المسجد إلى البيت فلا تَسَل عن الاغتنام لهذه الدقائــق، فهي إما في الفتيا، أو تصحيح بعض الكتب التي تُفرّغ من الأشرطة(٢)، فإن لم يوجد مستفتٍ أو مصحّح لكتاب؛ فإنه يلبي رغبةَ بعضِ الطلاب الذين يريدون من الشــيخ تعليقًا على بعض المتون المختــصرة، وأعرف أكثرَ مــن كتابٍ مطبوع في الســاحة هو من شرحه في أثناء الطريق! كتعليقه على كتاب (كشــف الشــبهات)، وتعليقه على (منظومة القواعد الفقهية) لشيخه السعدي، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



(١) مقال لفضيلة أ. د. عبدالله الطيار في جريدة (الجزيرة) ٢٠/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٢) وقد رأيت هذا بنفسي مرارًا.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٨)

٢٥/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلَمُ التاسع[١]: الزهد في الدنيا:

ما أشرف هذا المسلك وأعظمَه! الذي حقيقته: «تركُ الرغبةِ فيما لا ينفع في الدار الآخرة؛ من فضول المباح التي لا يُستعان بها على طاعة الله»[٢].

وإن من أعلى مراتب الزهد: أن يكون المرءُ قادرًا على حيازة حُطام الدنيا، بل وتأتيه الدنيا، وتُعْرَض عليه، ومع ذلك تراه زاهدًا فيها لا يريدها، يأخذ منها قدْر البُلغة، ويجعلها في يده لا في قلبه، ويستخدمها، ولا يَخدمها، وهذا ما أحسب أن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان متّصفًا به، كما شهد بذلك القاصي والداني.

---

(١) أشرتُ فيما سبق إلى ثمانية معالم تميزت بها شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، و(التثبت في النقل والحكم)، و(عنايته بالتحصيل العلمي لطلابه)، و(حرصه على تطبيق السنة في أموره كلها)، و(حرصه على الوقت)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١).

لقد كان شيخُنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ قادرًا على العيش عيشة كبار الأغنياء والأثرياء، ولكنه رضي من ذلك بالقليل، ولله درّ الشـــاعر حينما وصف إتيانَ الدنيا للشيخ وإعراضَه عنها بقوله:(١)

لـكــأنـي أُبصِـرُ الدنيــا الـتي
بَذلـتْ إغــــراءَهـا للنــاظرين

أقبلـتْ تَعــرِضُ مِـنْ فتنتِــهـا
صورًا تَســبي عقولَ الغــافلين

رقصــتْ مِن حــولِــه لكــنَّـهـا
لم تجِــدْ إلا ســـموَّ الزاهــدين

أرســــلَ الشـــيخُ إليها نظـرةً
مِن عزوفِ الراكعينَ الساجدين

فمضــتْ خــائبةً خــاســــرةً
تتحــاشى نظراتِ الشــــامتين

أخـرجَ الدنيــا من القـلبِ وفي
كفِّه منـها بــلاغُ الـزاهـــديـن

لم يكـــنْ فـي عزلـةٍ عنْـها ولـم
يُغلقِ البابَ عنِ المســترشـدين

---

(١) مــن قصيــدة للدكتــور عبدالرحمــن العشــماوي، نُــشرت في (الجزيــرة) بتاريــخ ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

إن هـــذا الخُلق العظيم من أعظم مزايا الشـــيخ، بـــل ولعلّه من أكبر الأســـباب -مع وفور العلم والورع- التي جعلت للشـــيخ هذا القبولَ العظيمَ.

ومما اشـــتهر عند العامة والخاصّة أن الملـــك خالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما زار عنيزة في أوائل عام ١٤٠١هـ، عرَض على شـــيخنا أن يَبنـــي له بيتًا على الطراز الحديث بدلًا من بيته الطِّيني؛ فاعتذر شـــيخُنا بلُطف، وقال: الأهم من ذلك بناء الجامع، ووُقِف لطلاب العلم الغرباء.

ومن جميل ما وقفتُ عليه مما كُتِب عن الشـــيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كتبه أحدُهم متحدثًا عن سر القبول العظيم الذي وضعه الله للشـــيخين العالمين: ابن باز، وابن عثيمين رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، أســـوق بعضَ كلامه، حيث يقول: «لماذا كل هذه العواطف الجيّاشة تجاه هذين الرجلين؟ وما هو سِر محبتهما في قلوب الجميع؟ هل هناك عوامل أو صفات مشتركة بينهما؟ هل المستوى العلمي وحده هو المحرّك لتلك العواطف؟ بمعنى هل هو التميز العلمي فقط؟ أم السلوك الشخصي؟ أم ماذا؟ في اعتقادي أن الوقفات الآتية تتضمن نقاطًا مهمة في قراءتنا للموضوع، وفي محاولتنا لتفسير أي غموض يكتنفه:

أولًا: أهمية العفّة والنزاهة بالنسبة للجميع وبخاصة العلماء، ودورها في إضفاء الهيبة والوقار عليهم، ومحبة الناس لهم، لقد كانت العفةُ والنزاهة التي تميّز بها كلٌّ منهما -وبحق- مصدر ثقة بهما، ومحبة لهما، وعزة وكرامة لهما في الدنيا، وأرجو أن تكون شافعة لهما يوم القيامة، وأحسب أن العفّة والنزاهـــة رايةٌ بيضاءُ يجب أن تُميِّز طالـــبَ العلم الشرعي، وثوبٌ ناصعُ البيـــاض يرتديه، ويميّزه عن طلّاب الدنيا، وقـــد أثبت التاريخُ أن العفّة

والنزاهــة تُضفي على أصحابها من العلماء هيبــةً ووقارًا في قلوب العامة والخاصة.

ثانيًا: الزهد في الدنيا الفانية، بما فيهــا من وظائف وأموال، واحتقارُ المادّة وغيرها مهما بلغ حجمُها»[1].

جعلنــا الله مــن الزاهدين في الدنيا عــلى الوجه الــذي يرضيه عنا، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



(١) كتبه د. فهد السلطان في جريدة (الجزيرة) ١٢/ ١٠/ ١٤٢١هـ (ص٢٩).

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٩)

١/ ٨/ ١٤٣٦هـ

المعْلَمُ العاشر: الورع:

الورع هو «ترك ما قد يَضر في الدار الآخرة، وهو ترك المحرّمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فِعْله أرجح منها»[1]، ولهذا الخُلق العظيم تطبيقات عدّة في حياة الشيخ، ومنها:

١. **في الفتوى:** تورّعه في الجواب عن الحكم على بعض الأحاديث التي لا يَعرف صحّتَها، وهذا كثير جدًّا، وتورّعه عن القول بمسائل لم يُسبَق إليها، أما التوقّف عما لا يَعلم فهذا ورعٌ واجبٌ لا يجوز انتهاكه.

٢. **في عمله في الجامعة:** وذلك أن شيخنا يحصل أن يتغيب عن الجامعة لمصالح مهمّة؛ كارتباطه باجتماعات هيئة كبار العلماء التي تُعقد أحيانًا في أيام الدراسة، فعند ذلك يَخصِم ما يُعْطَى له مقابلَ تلك

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١).

المحاضرات، ويدفعه للعميد، أو مدير الجامعة نفسه، كما ذكر ذلك أكثـرُ من واحد، ومنهم معالي أ. د. عبد الله التركي، المدير السـابق لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية[١].

٣. ومن هذه المواقف أن شـيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام ١٤١٧هـ استضافته جامعةُ الإمام ليُلقي محاضرةً على المبتَعثين، وليجيب عن أسـئلتهم، وكان ترتيبُ تلـك المحاضرة يتزامن مع اجتـماع هيئة كبار العلماء في مدينة الرياض؛ فاعتذر الشـيخ عن عـدم إلقاء المحاضرة إلا أن يأذن له سـماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، فأذن له فحَضَر، وفي نهاية المحاضرة طلب منه ملقي الأسـئلة أن يوقّع عـلى نموذج يُصرَف بموجبه للمحاضِر مكافأةً على المحاضرة، فلما صلى الشيخ، وجلس لاستكـمال الأسئلة قال لملقي الأسـئلة: أين الورقة التي أعطيتني قبل قليل؟ فأعطاه إياها، فمزقها الشـيخ، فقال له ملقي الأسئلة: لمَ فعلتَ ذلك أحسـن الله إليك؟ قال: نحن الآن محسوبون على هيئة كبار العلماء بالرياض[٢].

٤. **ومن ذلك**: أن عميد كلية الشريعة السابق[٣] حدّثني أن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما عاد من رحلته العلاجية من أمريكا؛ زاره في مسـجده في عنيزة، وفي زحمة الناس، ومع إنهاك المرض؛ لم ينسَ الشيخُ أن يسأل العميد، فقال له: أنـا تغيّبتُ عن العمل، والراتب مـا زال يُصرَف! فأجابه العميدُ بـأن الموظّف له حقٌّ في الإجازة المَرضيّة؛ فاطمأن الشـيخ.

(١) مقال لمعالي الدكتور عبدالله التركي في مجلة الأربعاء (١٣)، بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.
(٢) مجلة الدعوة، العدد الخاص عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ (ص٤٦).
(٣) هو أ. د. عبدالله بن حمد اللحيدان، عميد الكلية سابقًا.

ســبحان الله! كم ذاب هــذا الخُلُقُ العظيم في زحمــةِ المال، والركضِ خلف المناصب والكرسي، وحظــوظِ النفس العاجلة! وقد يقع هذا من أناسٍ محســوبين على العلم بتأويلات باردة، وبعضها مســتكرَهٌ، فعرف بعضُ العقلاءِ سرًّا من أسرار قلّة الانتفاع بعلمِهم وهم أحياء!

ولما كان للورع أثرُه في القلب والعلم والعمل؛ كان السلف يتواصون به، ويتعلّمونه، كما قال الضحّاك: «أدركتُ الناس وهم يتعلَّمون الورع، وهم اليوم يتعلَّمون الكلام!»[1]، فاللهم، انفعنا بما علمْتَنا، وارزقنا الورعَ عما يُفسِد قلوبَنا ودينَنا، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



(١) الورع. ابن أبي الدنيا (ص٥٠).

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١٠)

٧/ ٨/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ الحادي عشر: التواضع:

وهذا -أيضًا- مما اشتهر عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله في ذلك مواقف عدة!

وقد يقول قائل: أوليس هذا أمرًا واجبًا؟ أوليس الكبرُ محرمًا؟ فالجواب: بلى، لكن مرادي هنا التنويه بمزيد من هذا الخلق عند شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولأن التواضع إذا صدر من الكبار له وقْعُه وأثرُه، ويُزْدرَى شرعًا وعقلًا إذا صدر الكبرُ من غير من يُتوقع منهم، فمن الثلاثة الذين لا يكلّمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة: «عائلٌ مستكبر»[1].

وأذكر هنا مواقف مختصرة جدًّا، تناسب طبيعة هذه المقالات:

١. ذات مرة كان الشيخُ يسير في الشارع، فدعاه أحدُ الشباب -وعمره أربعة عشر عامًا- لتناول القهوة في منزله، فدخل الشيخ معه، وسأله عن دراسته، ثم خرج.

---

(١) رواه مسلم (رقم١٠٧)، والعائل: الفقير.

٢. رأيتُ الشـــيخَ مرارًا يركب سيارات بســـيطة جدًّا، لا يركبها بعضُ الناس الذين يشـــعرون بشيء من الوجاهة أو المكانة، أما شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فلم يكن ممن يبالي بهذه الأشياء.

٣. وأما تواضعه في معاملته للناس، فهذا له مواقف وصور كثيرة منها:

أ ـ مع الأطفال: وهذا أمر معروف عن شيخنا: فهو لا يملك مشاعره تجاههـــم، حتى قال بعض الإخوة: إنني إذا كانت لديّ حاجة عند الشيخ، وظننتُ أن الشيخ ســـيعتذر -لضيق وقته أو نحو ذلك- ذهبت بأولادي كالشُّفَعاء بين يَدي حاجتي[1].

- ذات مرّة ذهب أحدُ الإخوة ليُصلي مع الشـــيخ؛ للســـلام عليه عقب وصوله من أحد الأســـفار، فاصطحب معه أحدَ أطفاله، فلما ســـلّم الشـــيخُ من فريضته قام هذا الأخ ليصـــلي راتبةَ تلك الفريضة، وكان مِن عادة الشيخ أن يصلي الراتبة في البيت، فلما همّ الشيخ بالانصراف -في الوقت الذي كان فيه ذلك الأخ يصلي- ذهب الطفل إلى الشيخ، ودخل في غمرة النـــاس، وقال له: والدي يريدك! وأمســـك بثوب الشـــيخ حتى جاء به إلى مكان أبيه الذي يُصلي فيه الراتبة، فلم يُفاجَأ إلا والشـــيخ قائمٌ على رأسه، والطفل ممســـك به! فقام، وقبّل رأسَ الشيخ، واعتذر منه، وبيّن له أن هذا مِن تصرّف الطفل.

- وكم رأيتُه مـــرارًا يُعطي طفلة تقف عند باب الجامع بشـــكل متكرر ريالًا، ولربما مازَحَها، وقال: «تريدَنْ ريالًا جديدًا أو قديمًا؟» ثم تقول له: أعطني لأخي، فيعطيها وهو مبتسمٌ منشرحَ الصدر!

(١) مقال للأستاذ سامي الغرير في جريدة (الجزيرة) بعنوان (الجوانب الإنسانية عند الشيخ) بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

ب ـ مع عامّة الناس: ومواقفه معهم كثيرةٌ، وفي بعضها طرافة، أذكر منها:

١. ما حدّثني به د. علي بن إبراهيم اليحيى[1]، أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدّثه، فقال: كنتُ في مكة المكرمة في يوم من الأيام، فركبتُ مع سائق أجرة، وكان هذا السائقُ من الأعراب، فلما ركب الشيخ معهُ أخذ يُمازحه، ويسأله، فسأل الســـائقُ الشيخَ: مَن أنت؟ فقال الشيخ: أنا محمد بن عثيمين! فقال له الشـــيخ، ومن الأخ؟ فأجابه السائقُ جوابَ الذي يظن أن الشيخ يَســـخر منه: معك عبدالعزيز بن باز! فقال الشيخ: أقول لك: أنا محمد بن عُثيمين، فأصرّ الســـائقُ عـــلى جوابه قائلًا: معك عبدالعزيز بن باز، فقال له الشيخ -لما رأى إصرارَه-: الشيخ ابن باز ما يشوف (لا يبصر) فكيف يسوق السيارة؟! فالسائق عرف من الشيخ أنه جادٌّ، فأُحْرِجَ هذا السائق من لطف الشيخ وتواضعه. شيخٌ يُباسِطه ويمازحه.

وتأمّل كم في هذا الموقف من دلالة على تواضع الشـــيخ! فقد تبسّـــط مع هذا الســـائق هذا التبسُّط، وكيف ركب هذه السيارة البسيطة، مع أنه كان بإمكانه أن يَطلب موكبًا رسميًّا ولكبار الضيوف، لكن الشيخ لم يكن يبالي بهذه الأشياء أصلًا، بل لم تكن تخطر له على بال.

٢. أما موقفه مع العامّة الذين قد يتصرف أحدُهم تصرفًا يظهر للشيخ منه حســـنُ القصد؛ فإن الشيخ لا يعنّفه، ولا يوبّخه، بل يتعامل معه بكل رفق، وأذكـــر مرة ونحن في الدرس؛ فجـــاء رجلٌ عاميٌّ رثّ الهيئة، فتخطى الصفوف، حتى وصل إلى الشـــيخ في مجلس درسه،

---

(١) عضو هيئة التدريس -سابقًا- في قسم السنة وعلومها بكلية الشريعة.

وأعطاه حزمة من الســـواك، فشـــكره الشـــيخُ، ووزّع السواك على أقرب الطلاب، ولم يقل له شيئًا، على الرغم من أن هذا الرجل قطع الدرس، وهذا من أكثر ما يُغضب الشـــيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.



تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١١)

١٣/ ٨/ ١٤٣٦هـ

المعْلَمُ الثاني عشر: الاهتمام بشؤون المسلمين في الداخل والخارج:

وهذا من شأن العالم الإمام، الذي لا يَشغله شأنُ العلم عن الاهتمام بقضايا الأمة، ولقد كان لشيخنا نصيبٌ وافرٌ من ذلك.

وكانت قضيةُ وحدة الصف، ولمّ الشمل، وجمعِ الكلمة على الحق، والتحذيرِ من التفرقِ والاختلافِ المذمومِ، والتماس الأعذار متى ما وجد الإنسانُ إلى ذلك سبيلًا؛ كانت تلك من أعظم القضايا التي كان يرُكّز عليها في أحاديثه ومحاضراته ولقاءاته بالمسلمين في كل مكان، وكثيرًا ما كنتُ أسمعه يُردّد قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

أما عن اهتمامه بقضايا الناس في الداخل فهذا كثير جدًّا، ولعلّي أُشير إلى شيءٍ من ذلك على وجه الاختصار:

١. جلوسُه للناس بعد العصر: كلَّ يوم مدّة تقرب من الساعة، وقد تزيد، وقد تنقص بحسب كثرة الناس وقلّتهم، وذلك للإجابة عن أسئلتهم، وقضاء حوائجهم، وتحرير بعض الفتاوى، وقد لا يعود لبيته إلا قبيل المغرب، خاصةً أيام الشتاء.

٢. عنايته بعمارة المساجد: وهذا أمرٌ لمسته بنفسي في مشروعات كثيرة عرضتُها عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فلم يرد لي أيَّ طلب منها، وكان من وَرَعه أنه يَطلب منّي -قبل أن أعرض عليه التكلفة التقديرية- أن أسأل مؤسسةً موثوقةً، لها خبرة في مجال العمارة، حتى يَطمئن إلى المبلغ الذي يدفعه.

٣. اهتمامه الواضح بجمعيات تحفيظ القرآن الكريم: من حيث الحث على دعمها ماديًّا ومعنويًّا، وقد ظهر هذا الدعم المعنوي في حرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على حضور حفلات هذه الجمعيات إذا كانت داخل القصيم، أو إرسال وفد لحضورها إذا كان الاحتفال خارج المنطقة.

٤. وكذلك الحال مع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإخوة العاملون في هذا القطاع المبارك يُدركون ذلك أكثر مني.

٥. وما قيل عن هذه المؤسسات الخيرية التي يدعمها الشيخ؛ يقال عن دعمه لمكاتب الدعوة والإرشاد، والمؤسسات الخيرية التعليمية والإغاثية، وغيرها من الجهات الخيرية.

٦. وكان من آخر ما قام به الشـيخ في حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أن الناس في عنيزة لما حصل عندهم شُحٌّ في الماء؛ تطلّب ذلك حفرَ مجموعة من الآبار، وكانت تكلفتها باهظة، فتكفّل الشـيخُ بدفـع قيمتها -من أموال المحسنين- وكانت أكثر من مليوني ريال!

وأمـا في الخـارج: فمع المراكز الإسـلامية، ومتابعة أحـوال البلاد الإسلامية المنكوبة، أو التي قام فيها علمُ الجهاد في سبيل الله تعالى، فكان الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على اتصالٍ دائمٍ بإخوانه في البوسنة إبّان الحرب، وكذلك في الشيشـان التي يوجد بها بعضُ طلابه. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحث بعض طلابه على السفر إلى الخارج للدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

أما المراكز الإسلامية: فقد كانت على اتصال بشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان يهتم بما يعرضونه من مشكلات، ويحاول تذليل الصِّعاب لهم، وفي آخر حياته كان يُلقي المحاضرات إلى المراكز الإسـلامية في أمريكا وأوروبا وهو في بيته، وبعضها كان بشكل دوري.

وقد ذكر أحدُ الإخوة موقفًا حصل له مع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما استمع منه إلى حديثٍ عن بعض مشـكلات المسلمين في الخارج، وبعض أخبارهم، فأخذه الشيخُ على انفراد، وقال: أنا وأنت هنا، ولا يرانا إلا الله، خذ هذا المال -وكان كبيرًا- وهو من مالي الخاص، واشترِ به مصاحف، ووزّعها على المحتاجين في السـجون الأمريكية، وأنت مسؤول عن الشراء وعن التوزيع، وأسألك بالله ألا تبلّغ أحدًا بهذا[١].

---

(١) مقال للدكتور عبدالله الموسـى في جريدة (الجزيـرة) في ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ عدد رقم (١٠٣٣٧).

وبعد: فمهما تحدثتُ عن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو قليلٌ بحقّه، وإنما المقصود التنبيه إلى شيء من ســيرته ومعالم من حياته عــلى وجه الإيجاز؛ لعل الله أن ينفع بها، فاللهم، اغفر لشــيخنا، وارفع درجتــه في المهديين، وارحمه برحمتك الواســعة، واجعلنا وإياه في الفردوس الأعــلى مع من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشــهداء والصالحين، وحســـن أولئك رفيقًا، والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وســلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



أمثال مُحبِطة

٢٥/ ٨/ ١٤٣٦هـ

تحتل الأمثالُ -العربي منها والشعبي- مكانةً عاليةً في الموروث الثقافي لكل أمةٍ وبلدٍ، ولا شــك أن كثيرًا منها يحمــلُ في طياته خلاصةَ تجاربِ قائليها، وعصــارةَ فكرهم، وفي كثير منها وجهٌ مــن وجوه الحكمة، بل بعضُها يحمل تاريخًا لقصة سارَ بسببها ذلك المثل.

ولشدة تأثير هذه الأمثال في ثقافة كثير من الناس؛ صار بعضُهم يردّدها وكأنهــا نصوصٌ محكمة، لا يأتيها الباطل مِــن بين يديها ولا من خلفها! وأصبح الوالدُ والمعلمُ والشــاعرُ والمتحدّثُ في المجالس يستخدمها -في بعض الأحيان- بوصفها دليلًا قاطعًا لحسم الخلاف حول قضيةٍ معيّنةٍ!

والأمرُ المؤلم في هذا الموضوع: هو ما يقع من التســليم بمعاني بعضِ تلك الأمثال، والاستسلام لمضامينها السلبية، وانتقال هذا التأثر بفهمها إلى الواقع؛ فتقعــدُ بصاحبها عن معالي الأمور، وتَجاوزِ العقباتِ التي تمرّ به، وسأذكر نماذج لبعضها ليقاس عليها؛ حتى يُعلَمَ أن بعض هذه الأمثال قد يكون جاء في سياقٍ معيّن، أو ظَرف خاص، ولا يَصح استعماله في كل مناسبة، ولِيُعْلَمَ أيضًا أن بعض هذه الأمثال ينبغي الإعراض عنه.

فمن الأمثال الدارجة -وخصوصًا في الأوساط العلمية-: «ما تَرك الأوَّلُ للآخِر»!

وأكتفي في نقد هذا المثل بقول ابن عبدالبَر عن هذه الكلمة: إنها مِن أضر الكلمات بالعلم وبالعلماء والمتعلِّمين[1]، وصواب العبارة عند أرباب الهِمم: «كم تَرك الأوّلُ للآخِر»!

فالجملة الأولى تحمل رسالةً سلبية بقتل الإبداع، وأن مَن سبَقَنا لم يَترك لنا مجالًا لأنْ نُبدِع، أو نجدِّد، أو نُضيف شيئًا، بخلاف الجملة الثانية؛ فهي تَفتح البابَ على مصراعيه لمن يريد الإضافةَ والتجديد، وتَقديمَ النافعِ المفيد.

ولك أن تتصور لو ركَن العلماءُ الذين جاؤوا بعد القرون المفضّلة لهذه الجملة المحبِطة، فهل كنّا سنرى شروحات ابنِ عبدالبَر؟ أم تَفنُّن الخطيب البغدادي في التصنيف في علوم الحديث؟ أم هل كانت ستنتفع المدرسةُ الفقهيةُ بمدونات النووي أو ابن قُدامة، وغيرهما من محقّقي الفقهاء؟ أم تُرانا كنّا نستفيد مِن تحريرات وتحقيقات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه، وأخص منهم ابن القيم، وابن كثير، وابن عبدالهادي- في شتى الفنون؟ أم هل كانت ستنعم المكتبةُ الإسلاميةُ -والحديثية خاصة- بتحريراتِ المزيّ وتلاميذه -كالذهبي وابن كثير-؟ أم هل كنّا سنرى تلك الإضافةَ العلميةَ العظيمةَ في مصنفات ابن حجر وخاصة فتح الباري؟ أم تجدنا مستفيدين من تجديد الإمام محمد بن عبدالوهاب في أبواب التوحيد -وخاصة توحيد العبادة-؟ أم هل كنّا سنَطْرَب لتحقيقات العلامة المعلّمي اليماني؟ وغير هؤلاء كثير جدًّا.

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤١٦).

وما أجمل قولَ ابن القيم -وأصل الكلمة لشيخه ابن تيمية-: «العامّة تقول: قيمـــة كلّ امرئٍ ما يُحســـن، والخاصة تقول: قيمـــة كلّ امرئٍ ما يَطلب، يريد: أن قيمة المرء همّته ومطلبه»[1]؛ فدع عنك هذا المثل المحبِط، وانظر فيما تتطلع له همّتك، وتأمل ما الطرق التي يمكن ســـلوكُها لتقديم الجديد والمفيد؛ فاسلكه مستعينًا بالله.

وهذا الكلام ليس خاصًّا بعلوم الشريعة فحسب؛ وإنما في جميع الفنون والمجـــالات -الدعويـــة، والإغاثية، وغيرها- بـــل وفي العلوم الدنيوية المحضة؛ إذْ لو استســـلم المخترعـــون لواقعهم، لم ننعم بهـــذه التقنيات الحديثة، التي لم يكن أكثرها موجودًا قبل مئةِ سنة من الآن.

ومن تلك الأمثال الســـائرة -وهو مثلٌ شـــعْبي-: «يوم شاب دخلَ الكُتّاب»؛ أي: يوم تقدّم به السنّ بدأ يتعلّم!

وهذا المثل يحمِل رسالةً ســـلبيةً لهذا المتعلّم الذي تعلّم على كبَرِ سِنّه، وكأنه يُقال له: ما فائدةُ تعلّمِك في هذه السن؟ ومِن أقرب ما يفنّد مدلول هذا المثل: عموم الأدلة الدالة على طلب العلم وتحصيله؛ ولهذا لما ســـاق البخاريُّ قولَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفقّهوا قبل أن تُسَودوا» علّق عليه البخاري قائلًا: «وبعد أن تُسَـــودوا، وقد تعلّم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كبر ســـنهم»[2]، ولأنْ يموت الإنســـانُ متعلماً خيْرٌ له مـــن أن يموت راضيًا بجهله.

وبكل حالٍ، فليس المقصودُ من هذه المقالة حصرَ الأمثلة التي من هذا

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٥).

النـــوع، بل التنبيه على ما أشرتُ إليـــه في المقدمة؛ مِن ضرورة التنبّه للأثر السـلبي لهذه الأمثال التي تُردَّد دون وعي في بعـض الأحيان، وينقلها اللاحقُ عن السـابق، وأن يُدقِّق الإنسـانُ في هذه الجُمَـل، ولا يلتفت للمثبّط منها والمحبِط، وليكن لسان حاله: «استعن بالله، ولا تعجز».



لا تُنَفروا إخوانَكم من رمضان

١/ ٩/ ١٤٣٦هـ

لما دخل أولُ يومٍ من رمضان التفتَ إمامُ المسجد، فوجد أعدادًا كبيرة قد صلّت معه، فانتهز هذه الفرصة ليكرّر موعظتَه السنوية المعروفة، التي لا تخلو من جملة: «بئس القومُ الذين لا يعرفون اللهَ إلا في رمضان!».

هذا المشــهد قد لا يتكرر كثيرًا بالتفاصيل نفســها، لكنه قد يتكرر في المضمون نفســه، حين يمارس بعضُ الإخوة الغيورين أســلوبَ التقريع والتوبيــخ المباشر وغير المباشر للذين وجــدوا في رمضان فرصةً للقرب من الله، والتخفّفِ من بعض الذنوب، والرغبة في تغيير الحال، خصوصًا ورمضان شــهرٌ تُفتّح فيه أبوابُ الجنّة، وتغلّــق فيه أبواب النار، وتصفّد الشياطين، ويجدُ المسلمُ مع الصوم من الصفاء والقرب ما لا يجده في غيره من الأحوال، خاصةً وهو يعيش هذه العبادة مع أكثر من مليار مسلم.

كم تعجبني تلك الكلمة العميقة مــن الإمام الرباني أبي العباس ابن تيميــة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي يقول فيها: «ليس كل الخلــق مأمورين بالكمال، ولا يمكــن ذلك فيهم»[1]، وهذا معنى يجب أن نســتحضره عنــد تأمُّلنا في

---

(١) الاستقامة (٢/ ١٥٦).

أحوال الناس، ووعظهم وتذكيرهم، فالكمال مرتبة فاضلة، ينبغي السعي إليها، والتشجيع عليها، لكن ليس من السائغ شرعًا ولا عقلًا حمْلُ الناس عليها، ويوضّح ذلك أن الله تعالى قال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر:٣٢]، فكل هؤلاء الأصناف الثلاثة: الظالم -وهو المفرّط ببعض الواجبات، الفاعل لبعض المحرمات- والمقتصد -وهو الفاعل للواجبات، التارك للمحرمات- والسابق بالخيرات؛ كل هؤلاء ممن أورثهم الكتابَ بل واصطفاهم، وتأمّل كيف بدأ بذكر الظالم؛ حتى لا يغتر السابقُ، ولا يقنط عاصٍ!

إن الحديث عن المقامات العالية والأحوال الفاضلة يصلحُ أن يركّز على طلاب علم؛ فلا ينبغي من مثلهم التقصير، أما عموم المسلمين فينبغي الرفق بالحديث معهم وإليهم -خاصةً في أزماننا هذه التي كثرت فيها سبل الصدّ عن الخير وأهله- وأن يُشْكَروا على كل خطوة يتقدمونها في الخير، ويُحْمدوا على كل خصلة رديئة يتركونها، وأن يُفْرَحَ بكل والجٍ للمسجد، وأن نستشعر أن مجرد وصولهم إلى المسجد هو خير عظيم يجب استثماره، والترحيب به، وأن نبتعد عن أي أسلوب ينفّر الناس من هذا الدين، وإن غُلِّف بغلاف الغيرة، أو النصح.

وتأمل معي هذا الموقف الذي حدّث به أبو مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فقد جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان، مما يطيل بنا! فما رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضِب في موعظة قط أشدَّ مما غضب يومئذ، فقال: «**يا أيها الناس، إن منكم منفّرين،**

فأيكم أمَّ الناس فليوجز؛ فإن من ورائه الكبير، والضعيف، وذا الحاجة»[1]، فانظر كيف غضـــب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الفعـــل الذي أصله حقّ -وهـــو الصلاة- لكن طرأ عليها ما نقلها عن كونها وســـيلة للتقرب إلى كونها وسيلة للتفرّق! وهكذا يقيس العاقلُ الفقيهُ في وعظه على هذا المثال.

إن مما ينبغي ألا يَغيب عن بال الواعظ هو: النظر إلى الموعوظين بعينِ الرحمة، وإلى نفسه بعين الإزراء والمقت، فلربما كان فيمن يستمع له -ممن قـــد لا يبدو هذا على مظهره- من هو أكثـــر صلاحًا وتقًى، وقد تكون له أعمالٌ صالحةٌ، وخبايا من الحسنات بينه وبين الله.

ومَنْ عرف نفســـه حقًّا، وحاسبها، وعرف مقدار تقصيرها؛ مَقَتَها في ذات الله، وأنه لولا ســـترُ الله الجميل لما وقف واعظًا لعباد الله، فليحرص على الرفق، وليجتهد في النصح المقرون بالرحمة والشفقة.

وكل ما ســـبق لا يعني -بلا ريب- السكوتَ عن النصح، ولا غضَّ الطرف عن تصحيـــح الأخطاء، لكـــنّ الموفّق يلتمس الوقـــتَ والحالَ الأنسبَ، بعد التأكد من كون الأمر الذي ينبّه عليه من المنهي عنه بالدليل الشرعي، وأنه ليس للشخص المنصوح عذرٌ ومأخذٌ معتبر فيما فعل، والله الموفق.



(١) رواه البخاري (رقم٧٠٢)، ومسلم (رقم٤٦٦).

حتى ننتفع بالتراويح

٧/ ٩/ ١٤٣٦هـ

إذا ذُكِرَ رمضان ذُكرتْ التراويح، تلك السُّنَّة التي توارثتها الأمةُ عن نبيهـــا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، والتي حصل بســـببها خيرٌ عظيمٌ.

إنها لمشـــاهد تبعث على البهجة، حين ترى تلك الجموع تنقاد طواعيةً إلى بيوت الله، من مختلف فئات المجتمع، ومنهم أولئك الشبابُ الذين قد لا تبدو عليهم مظاهرُ الاستقامة الظاهرة.

إن التراويح ليســـت مجرد تظاهرة دينية رمضانيـــة، بل هي انتصابٌ للأقدام بين يدي ملك الملوك قُرابة الســـاعة، والمصلي فيها يســـتمعُ لخير ما نزل من الســـماء، كلامِ الملك العظيم، الذي ما صلحت القلوبُ بمثل ما صلحت به.

إن أحدنا لو كثرت مجالســـته للملوك، أو أهـــل الثراء لظهر أثرُ ذلك عليه وعلى كلامه ولباســـه، فكيف بمن يجلس على هـــذه المائدة الربانية ثلاثين ليلة! وتزداد كثافةً في عشرها الأخيرة، هذه المائدة التي تتنوع فيها

المواعظُ والأحـــكامُ، وآيات تتحدث عن أشرف علومِ هذا القرآن، وهو الكلام عن الله تعالى وعن صفاته جَلَّجَلَالُهُ!

وإن مـــن النُّصح أن نتواصى فيـــما بيننا، للبحث عن أفضل السُّـــبُل للانتفاع بهذه المائـــدة الربانية (التراويح)، ولعلي أشـــير إلى أهمها، ومن ذلك:

أولها: ينبغي ألا يغيـــب عنا -ونحن نمشي إلى التراويح- أن المقصودَ الأعظمَ من العبادات كلِّها هو تعبيدُ هذا القلب لله جَلَّوَعَلَا، وتذليله ليصل إلى الغاية الكبرى التي خُلق من أجلها الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريـات:٥٦]، ومن هذه العبـــادات: صلاة التراويح، فمتى استحضر المصلي هذه الغاية -وهو ذاهب للصلاة- فسيكون لها أثرٌ بالغ في صلاته، والتلذذ بسماع كلام الملك الرحمن.

ثانيها: حينما تُيمم وجهَك شـــطر بيتٍ من بيوت الله؛ فســـل ربك أن يجعل هذه الصلاة ســـببًا في صلاح قلبك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وعلى العبد أن يسأل ربَّه بإلحاح أن يصلح هذا القلب، فإن صلاحه ليس بمجرد حسن صوت القارئ، ولا بجودة المكان، ولكنه توفيقٌ من الله لمن صدَقَ معه، وانطرح بين يديه.

تأمل هذه الآية التي خوطب بها الأسرى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال:٧٠]، وتدبر هذه الشـــهادة من العليم الخبير، التي تدل على أثَرِ صدق القلب فيما ينزله الرب تعالى عليه من بركات: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨].

ثالثًا: أن يستشعر عظمةَ شعيرة الصلاة، فهي خيرُ أعمالنا كما قال النبي ﷺ: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»(١)، وصلاة التراويح من جملة هذه الصلوات، والله تعالى يبين لنا أن تعظيم شعائره برهانٌ على تقوى القلب: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢].

رابعًا: أن يعيش هيبةَ الموقف بــين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه واقف بين يدي مَنْ سعادتُه وصلاحُ حاله في الدنيا والآخرة بيده.

إن استشعارَ هذا الموقف وحده كافٍ في أن يخفّف عليه ما قد يجده من طولٍ في صلاته، بل ستتحول هذه المشقة إلى لذة.

خامسًــا: تفقَّدْ قلبَك بعــد الصلاة، وانظر: ما الــذي أحدَثَه فيه هذا القرآن؟ فإن لم تجد الأثر فعُدْ على نفســك بالمحاســبة؛ إذ الرب شكور، لا يمكن أن يعمل العبــدُ عملًا إلا ويثيبه عليه، هنا ســيكون للتراويح أثرُها الواضح في حياة مصليها، ليس في رمضان فحســب، بل في العمر كلّه.

فإن قَصُرت النفسُ عن تحقيق ما سبق كله، فإن شعورها بالتقصير في حق الله، وضعفِ الأثرِ من ممارسة تلك العبادات، هو بداية الطريق نحو التصحيح، واستثمارِ مواسم الطاعة، في تحقيق أجلِّ مقاصد نزول الكتب، وإرسال الرسل، وهو: إصلاح القلوب، وتعبيدها لرب العالمين.



---

(١) سنن ابن ماجه (رقم٢٧٧)، ومسند أحمد (رقم٢٢٣٧٨) وسنده صحيح.

التوسع في التدبر... وقفة مراجعة

١٣/ ٩/ ١٤٣٦هـ

العودةُ المشـــاهدةُ لكتاب الله تعالى -تلاوةً وحفظًا ومدارسةً وتدبرًا وتصنيفًــا في علومه- شيءٌ يبعث على البهجة والفرح؛ إذْ لا عزّ للأمة إلا بالعودة إلى هذا الكتاب العظيم، وسنةِ نبيّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيـــما يخصّ موضـــوع (التدبر) فإن هـــذه الفرحة بدا مـــا ينغّصها، ويكدّرهـــا؛ مِن جرأة بعضِ الناس على خوض غِـــماره دون اكتمال الآلة التـــي تخوّله للحديـــث فيه[1]، لذا تنـــادى جمعٌ من أهـــل العلم وطلبته؛ وصرّحـــوا بضرورة التوعية بخطورة هذا التوســـع الذي يزداد يومًا بعد يوم، وخطـــورة فتح الباب على مصراعيه، دون ضوابط وأصول تعصِمه من الزلل، وتنفي الدخيل عنه.

ويؤكـــد أهميةَ هذه الدعوة: أنه -عبر حِقَب التاريخ- ما من مبتدعٍ أو صاحبِ مذهب منحرف إلا وقد يســـتدل لباطله من القرآن! على طريقة

(١) ســـبق أن كتبتُ مقالةً في العام الماضي عنوانها: (التدبر بين تباشير العودة، وخطر الجرأة) وهو منشور على الموقع الشخصي:

http://almuqbil.com/web/?action=articles_inner&show_id=.1320

(اتباع المتشابِه)، أو النظر الأعور للأدلة، والانتقائية الجزئية، وسرى هذا الداءُ إلى مقالات بعض الصحفيــين، وأطروحات بعض الإعلاميين في عصرنا الحاضر.

إن المتابع لهــذا الموضوع -وخصوصًا في الســنوات الأخيرة- ومع انتشـــار مواقع التواصل، وبعض المقاطع المرئية التي بدأت تنتشر؛ يشهدُ أمورًا تبعث على الخـــوف والقلق من جرأة بعض الناس على اقتحام هذا الميدان! والكلامِ في معاني كلام الله جَلَّوَعَلَا دون ضوابط أو أصولٍ علميةٍ؛ ما يستوجب من الجميع بذلَ النصح، قبل استفحال الأمرِ وتفاقمه.

إننا وكما نتواصى بتدبر القـــرآن -كما أمر الله- فيجب أن نتواصى بأن يكون ذلك وفق الطـــرق العلمية الصحيحة، ونحـــن كما نجزم بأن من أراد أن يمتثـــل الأوامـــر المجملة في القرآن كقـــول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البقـــرة:٤٣] لا يمكنه تحقيقُ ذلك إلا وفـــق الصلاة الشرعية التي بيّنتها السنة، فكذلك لا يمكن امتثال أمر الله بالتدبر إلا وفق هدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصحابته، ومن سار على نهجهم في فهم القرآن.

وإذا كنا نفرحُ بهيبةِ عموم المســلمين من تفســيرِ كلمـــةٍ غريبةٍ دون الرجوع لكلام العلماء؛ فكذلك ينبغي أن يستقر في أذهانهم عدمُ التجرؤ على نشر التدبر إلا بعد التثبت والتبين من المعنى، فكِلا الأمرين -التفسير والتدبر- بابهما واحد؛ إذْ المراد منهما الفهم، ثم ما يتبعه مِن عملٍ قلبي أو بدني.

لقد مـــرّ بي ألوانٌ من تدبـــرات بعض الإخوة المنشـــورة على مواقع التواصل، أو وصلتني عبر رســـائل نصية، وبعضُها عبر مكالماتٍ هاتفيةٍ،

تؤكّد وجوب المسارعة لضبط الأمر، والدعوة إلى التريث وعدمِ العجلة في النشر، ومن ذلك:

- تعليقُ بعضِهـــم على قوله تعـــالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[محمد:٢٢-٢٣]، حيث قرر أن مِن الناس مَن يصوم، ويصلي، ويقرأ القرآن وهو ملعون! وأن القاطع لا يستفيد مِن القرآن، ولا مِن المواعـــظ، ولا من أيّ عبـــادة، وإن ختم القرآن أكثـــر من مرة، وقام الليـــل! لماذا؟ لأنه قاطعٌ لرَحِمه!! وأضـــاف أن عمَله لا يرتفع إلى الله ما دام قاطعًا! بل يَبقى معلّقًا، مع أن الآية لا تدل على ذلك، ولا يدل عليه الحديثُ الذي استشهد به، وهو قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شـــيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شـــحناء، فيقـــال: أنظروا هذين حتى يصطلحـــا**»(١)، فالحديث يدل عدم نيل فضيلة المغفرة التي تتكرر كلَّ أســـبوع مرتين، ولم يتحدث عن مسألة القبول! فانظر كيف تنقّل هذا الأخ من خطأ إلى خطأ!

- علّق أحد الإخوة على قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[طه:١٢] فقال: «خلَعَ النعلينِ فأوتي العصا، اخلع الدنيا من رجلك تمسك الهبات بيدك!»، فأين هذا من الآية؟ والآية إنما فيها الأمرُ بخلع النعلين لسبب -ذَكَره بعضُ المفسرين- وهو أن موسى كان يلبس نعلين مِن جلد حمار، فلا ينبغي أن يدخل بهما في الواد المقدس الذي سيكلم ربَّه فيه.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٦٥).

- ومــرّ بي كلامٌ لأحدهم يعلّل فيه ســبب حذف حرف (مِــن) من قوله تعــالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وأخذ يفصّــل تفصيلًا يكفي في نقضه أن تعلمَ أن هذا الحرف (من) ثابت في قراءة ابن كثير المكي، وهي قراءة سبعية متواترة.

- ومِن أعجب ما ســمعت، ما قاله لي أحدُهم في مكالمة هاتفية: معللًا تسمية موسى بهذا الاســم، أخذًا من الموس؛ لأجل أن يزيل فرعون من جــذوره!! وادّعى هذا الشــخصُ أن التدبر يمكــن لكل أحد، ولا يوجد حاجة للرجوع إلى كلام العلماء؛ لأن كلامهم غير معصوم، وأن تدبر القــرآن مفتوحٌ للجميع؛ لأن الله أمرنــا به جميعًا! ولك أن تتصور ما الذي سيصدر عن مثل هذا من تعليقات بل طوام!

ومن صور هــذه التدبرات الجائرة عن القصد: مــا يكون بعيدًا عن الســياق -وهو من أقوى المرجّحات في التفسير وفهم المعنى- أو يتكلم بما يخالف تفســير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو الصحابة والتابعين، أو يكون هذا المتدبر لا يعرف مبادئ علم أصول الفقه، الذي يعنى بالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيّد، والعام والخاص، فضلًا على القصور في علم القراءات، وعلوم اللغة العربية التي قد تكون هي المرجّح الأقوى في بعض المواضع.

إنّ الدعــوة إلى تدبــر القرآن حســنةٌ، لكن لا يصــح أن تكون بهذا الإطلاق الذي يُشــيعه بعضُ الفضلاء؛ لما سبقت الإشــارةُ إليه، فبابُ التفســير والتدبر واحدٌ من حيث الأصل، وإن كان في باب التدبر ســعةٌ من جهة أن اســتنباط المعاني والإشارات يقع وإن كان معنى اللفظة ليس

غريبًـــا، إلا أن ذلك -أيضًا- لا يعني أن يكون التدبر غير منوط بضوابط -كما ســبق- خصوصًا مع فشـــوّ هذه التعليقات على الآيات في مواقع التواصل، التي صار غالبُ الناس يتلقى منها دون تمحيص.

إنه ليحقُّ لكل غيورٍ على كتاب الله أن يتســاءل: إذا كنّا نســتنكر على الصحفي الــذي ليس مؤهلًا للــكلام في معاني الله، فلـــماذا يخفت هذا الصوت حينما يكون المتكلّم من المتسبين للمحاضن القرآنية، وهو ليس مؤهلًا؟ مع أن الصورة واحدة!

لقد بــذل العلماء جهــودًا في صيانة القرآن، ونفـــيِ الدخيلِ عنه من التفاســير البدعية والشــاذة؛ فعلينا كذلك أن نتعاون عــلى صيانته من التدبرات الشاذة والخاطئة؛ فهذا من جملة النصيحة لكتاب الله التي نص عليهـــا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حديث تميم الداري المشـــهور، ولا يصح أن يفسَّر هــذا بأنه تضييقٌ على الناس، بل هو صيانـــةٌ لكلام رب العباد من العبَث بمعانيه، وتصديرِها للناس عبر هذه الوســائل التي تنقل المعلومةَ لملايين خلال دقائق معدودة، وإذا كنا نستعظم أن يتصدر لتفسير القرآن من لم تكتمل له أداتُه؛ فلماذا صار التدبر منبرًا سهلًا يصعده كلُّ أحد؟!

هذه أسطرٌ حملَ عليها النصحُ والمحبةُ لإخواني المسلمين، مِن أن يتكلم أحدُنا في كتاب الله دون علمٍ، أو بيّنة، وهي في الوقت نفسه دعوةٌ للتدبر بضوابطــه العلمية، وأصوله المرعيّة، وأن نحذَر مِــن فتنةِ النشر وتدوير التغريدات والمقاطع المصورة -التي أغرت بها وســائلُ التواصل- قبل التثبت والتبين، وأن يكون همُّ أحدنا نجاته يوم يسأله اللهُ يوم القيامة عما قال في كلامه، لا أن يكون المسيطر هو ذاتُ النشر، والله المستعان.

يا زوّار الحرمين

١٩/ ٩/ ١٤٣٦هـ

يَحُثُّ كثيرٌ من المسـلمين الخطى -وفي شـهر رمضان خاصةً- نحو الحرمين الشريفين؛ ابتغاء الأجر والمثوبة، لما استقر مِن أن ثواب العمل في رمضان أكثر من غيره، فيجتمع لقاصدهما شرفُ الزمان والمكان.

والمسافرُ لهذه البقاع المقدّسـة، لا تُخطئ عينُه الكثيرَ من المشاهد التي ينشرح لها الصـدر، وهي الأصل والأكثر بحمـد الله، ولكن يعكِّر على ذلك بعضُ الأمور التي يَحسن التنبيه عليها؛ لتكون الزيارة محقِّقة لمرادها، وحائزةً أكبر مغانمها، ومن ذلك:

- إحسـانُ القصـد والنيـة عنـد العزم عـلى السـفر لهـذه البقاع، وألا يكـون الغرضُ المباهـاة، أو التقليد، أو مجـرد تزجية الأوقات مع الأصحـاب، أو لغيرهـا من المقاصـد الدنيويـة المحضة؛ فإن العمـرة وزيارة المسـجد النبـوي الشريف عبادة، ولا بـد فيها من النية لتُقبـل: «**إنما الأعمال بالنيـات، وإنما لكل امرئٍ مـا نوى**»[1].

(١) رواه البخاري (رقم١)، ومسلم (رقم١٩٠٧).

- يلاحَظ أن بعضَ الناسِ قد يسافر، ويترك أولادَه المراهقين أو الصغار في بلده، ليعتكف أو يصلي في الحرمين أيامًا عدة، دون أن يكون عليهم رقيبٌ أو متابع من أهل البيت! ما يترتب عليه ضياعُهم أو فسادُهم، وهذا تصرفٌ بعيدٌ من الفقه؛ فالعمرةُ والصلاةُ هناك مستحبة، ورعايةُ الأهل والأولاد واجبة: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

- ومــن الناس من يذهب بعائلته هناك، لكنه ينشــغل بخاصة نفســه وتعبُّده، ويترك أهلَــه، ويُهمل متابعتَهم -خاصــةً المراهقين منهم- ومثل هؤلاء قد يتسبّبون في أَذيّة غيرهم في أسواقهم وغيرها؛ فيكون الوالدُ شريكًا في الإثم بسبب تقصيره في المتابعة.

- بعض النســاء -هداهن الله- يتهاونَّ باللباس الشرعي عند سفرهن لهذه البقــاع؛ فمنهن من تلبسُ الضيقَ الذي يَصِف حدودَ الجســم، ومنهن مَن تخرج متزيِّنة متعطِّرة، ومنهن من تلبس عباءةً مليئة بالزينة، حتى إنها لتحتاج إلى عباءة أخرى تَستُرها، ومنهن إذا دخلت متجرًا أو محلًّا لشراء سلعة تتحدث مع الرجل الأجنبي عنها بلغة جريئةٍ، وكأنه أحد محارمها! بل ربما وقع شيءٌ من الخضوع بالقول، أو الضحك!

وكل ما سبق لا يشــك عاقلٌ أنه من دواعي الفتنة، وموجبات الشر والفســاد، وهو محرّم في كل زمان ومــكان، لكنه في هذه البقاع أشــدّ، والله تعالى خاطبَ أطهر جيل من النســاء والرجال عرفته الدنيا، فقال:

(١) رواه البخاري (رقم٨٩٣)، ومسلم (رقم١٨٢٩).

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾[الأحزاب:٣٢-٣٣]، فكيــف بعصرنا هذا الذي كثُرت فيه دواعي الشر، وأســبابُ الفتنة؟! فلتتقِ اللهَ تعالى المرأةُ المسلمةُ، ولا تكن سببًا في فتنة الرجال والشباب خصوصًا؛ فترجع بالوزر قبل الأجر، ولهذا كان من المسائل المحكَمَة: أن صلاة المرأة في بيتها الذي تسكنه -ولو كان مستأجرًا في الحرمين- أفضلُ من صلاتها في الحرم، ومع هذا فإذا أرادت أن تخرج فلتخرج بحجابها الشرعي الكامــل، غير متعطرة، ولا متزينة، ولا فاتنة أو مفتونة.

- ومما يلاحَظ على بعض زوار الحرمين- وفقهم الله- التقصير في التفقه في أحكام العمرة، مع كثرة الوسائل المعينة على ذلك في عصر الأجهزة الكفيّة، فترى المفتين تتكرّر عليهم بضعةُ أســئلة من مئات المستفتين تدور على أحكام واضحة، وسهلة الفهم، ويمكن تناولها من المصادر المكتوبة أو المســموعة أو المشــاهدة، فعلى مَن قصــد مكةَ -للعمرة خاصــة- أن يجتهد في قــراءةِ صفة العمرة، والإحــرام من الميقات، وكيف يطوف، ويسعى، وكيف يقص شعره، ومتى يحرم من الطائرة، ونحوها من الأحكام التي تناولها المؤلِّفون في مناسك الحج والعمرة.

- عــلى من وفّقه اللهُ للعمل في رحلته إلى الحرمــين أن يكتم ما وُفّقَ له، ولا يتحدّث بذلك؛ فإن هذا عملٌ صالــحٌ، والحديث عنه قد يُبطله بســبب العُجْبُ أو الريــاء، بل يكتم، وعســى الله أن يتقبل، ويغفر

التقصـــير والزلل؛ فإن العبــد مهما بلغ في تجويــد عبادته، فالتقصير لا بــد منه، وقد قالت الملائكة الســاجدون، الذين يســبحون الليل والنهار لا يفترون: «سبحانك ربنا! ما عبدناك حق عبادتك»[1]، والله المستعان.



(١) المستدرك (رقم٤٥٠٢).

عندما يجوع القلب

٢٥/ ٩/ ١٤٣٦هـ

إذا ذُكـر الجوعُ فلا يكاد ينصرف الذهـنُ إلا للجوع المعروف، لكنْ ثمة نوعٌ مِن الجوع أشـارت له النصوصُ النبويـة، والآثارُ المنقولة عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، تكشـف مظهرًا من مظاهر عنايتهم بسدّ هذا النوع من الجوع، الذي ابتُلي به أكثرُ الخلق، لكنهم لا يشعرون به! لفقدِ الداعي لهذا الشعور أو ضعفه؛ وهو: حياة القلب، واستنارته بنور الوحي.

كمّ مرّ على مسامعنا هذا الدعاءُ النبوي العظيم: «**اللهم، إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشـع، ومن نفس لا تشـبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها**»[1]، فتأمل: «**ومن نفس لا تشبع**»، إنه حديثٌ عن القلب إذا جاع، وتطلعت نفسُـه لحطام الدنيـا؛ فيجمع، ويجمع حتى لا يُوقِف جمعَه هذا إلا اصطدامُه بجدار الموت!

ويلفتُ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النظرَ إلى هذه الحقيقة بأسـلوبٍ آخر، حين أوصى تاجـرًا من تجّار المسـلمين -وهو حكيم بن حـزام- فيقول له:

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٧٢٢).

«يا حكيم، إن هذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارَك له فيه، كالذي يأكل، ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى»[1]، إنه تحذيرٌ غير مباشر من الوصول إلى تلك الحال التي تعوّذ منها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث السابق، ألا وهي: ظهور أعراضِ هذا الجوع القلبي بالاستشراف والتطلُّع للمال، فهو جوعٌ دائمٌ: «يأكل، ولا يشبع»!

ومن تأمل هذه الحال؛ عرف ورأى أعراضَ هذا الجوع على أحوالِ كثيرٍ من الناس الذين أقْفرت قلوبُهم من كنز (القناعة)، وتعطَّلت عندهم حاسةُ ذوقِ لذة (الكفاف)، فتلاشت، أو أوشكت أن تتلاشى من حياتهم جماليةُ صورة (الفلاح)، تلك الثلاثُ التي جمعها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: **«قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه اللهُ بما آتاه»**[2].

وثمة جوعٌ لا يُشبهه جوعٌ، ألا وهو: جوعُ القلب من لذة القرآن، وتدبُّر آياته، والعيش معه، والأنس بمناجاة الله بكلامه، والتلذّذ بخطابه جَلَّ جَلَالُهُ، وإلى هذا المعنى يُشير الخليفةُ الراشد أميرُ المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «لو صحّت قلوبُكم ما شبعتم من كلام الله»![3] فلنتأمل هذه الكلمة، ثم لنفتِّش عن مساحة الجوعِ التي تحتل قلوبَنا! ولنفكر في السبب الذي لأجله لا يستطيع الواحدُ منّا أن يُمسك المصحفَ سويعةً من زمن، أو يبقى معه وقتًا يليق به! أو يشعر بالمجاهدة العظيمة -وكأنه يحمل أثقالًا- إذا ابتدأ بتلاوته! إنه مرضٌ أصابَ القلبَ، واعتلّ معه اعتلالًا

(١) رواه البخاري (رقم١٤٧٢)، ومسلم (رقم١٠٣٥).
(٢) رواه مسلم (رقم١٠٥٤).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (رقم٦٨٠)، وفي سنده انقطاع.

جعله يَشعر بالشـــبع من أول وجهٍ يقرؤه، ولا يشعر بالجوع والألم عندما يفوته حزبُه منه!

وفي الجملة، فإن جوع القلوب حالٌ تَعرِض لكل أحد، لكن الشـــأن بالشعور بهذا الجوع والألم، الذي يدفع لسدِّ جوعتِه، كما يحرص الإنسانُ على سدِّ جوعة البدن.

ومتى ما شـــعرنا بالجوع؛ فتلك بدايةُ التصحيح، فمَن جاع بحث عما يســـدُّ جوعتَه، ومَن لم يشـــعر فليبحث عن قلبه، وليتذكر أن القلبَ فيه شـــعثٌ «لا يلمّه إلا الإقبالُ على الله، وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنسُ به في خلوته، وفيه حزنٌ لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته وصِدْق معاملته، وفيه قلقٌ لا يُسكّنه إلا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه، وفيه فاقةٌ لا يَسدُّها إلا محبتُه، والإنابةُ إليه، ودوامُ ذِكره، وصدقُ الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسَد تلك الفاقةُ منه أبدًا»(١).



(١) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦).

لا تنغصوا فرحة العيد

١/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

للعيد فرحةٌ وأي فرحة! إنها الفرحةُ بهذا الدين، وإكمال عِدة رمضان: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨][1]، إلا أن هـــذه الفرحة يـــأتي ما ينغّصهـــا في بعض البيوتـــات والعلاقات الاجتماعية، وعلى رأس هذه المنغِّصات:

- القطيعـــة التي توجد بين بعض الأقارب -والد وولد، أو أخ وأخيه- نجح الشيطان في صرْمِ حبالها، وقطعِ وصالها، مع أن عامة الأسباب -إن لم تكن كلها- دنيوية بحتة، أو أشياء يسيرة يمكن تجاوزها وحلُّها إذا وُجـــدت رغبةٌ صادقة من الطرفـــين: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[النساء:٣٥].

والملاحَـــظ أن مما يطيل أمَـــدَ هذه القطيعـــة: إصرارُ أحدِ الطرفين أو كليهما على اعتذار الطرف الآخر لأن الخطـــأ منه، أو أن الحق له! فيقابله

(١) ينظر مقالٌ سابق بعنوان: «العيد بين عبوديتين»:
http://almuqbil.com/web/?action=articles_inner&show_id=1323

الطرفُ الآخر بمثل هذا الشعور، فمتى يصطلح هذان؟ ومتى يجتمع المتقاطعون والمتهاجرون إذا لم يجتمعوا في العيد؟ أيَسُرّهم أن يُحرَموا من ذلك الفضل الذي حدّث به النبيُّ ﷺ في قوله: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس؛ فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنْظِروا هذين حتى يصطلحا، أنظِروا هذين حتى يصطلحا، أنظِروا هذين حتى يصطلحا**»[1]؟!

ما أسعد ذلك الساعي في رأب الصدع، وترميم العلاقة؛ بالعز في الدنيا قبل الآخرة، كما قال: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»[2]، وما أشد ما ينتظرُ الممتنع من الإصلاح من وعيد تقشعر له الأبدان: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد:٢٢-٢٣].

- ومما ينغّص فرحةَ العيد -وله صلةٌ بما سبق-: ما يقع من بعض الناس -خصوصًا ممن له حقٌّ لسِنِّه أو عِلمه أو مكانته الاجتماعية- من كثرةِ العتاب على الآخرين، سواء ممن لم يتصل أو يَزُر، أو يهنّئ، أو يُعايد!

ومع الاحتفاظ بحق كل إنسان، وأنه ينبغي إنزاله منزلته؛ فإن من الأصلح للقلوب أن تتسع لالتماس المعاذير للناس، فالصوارف والعوائق في عصرنا كثرت، وزادت، ولربما عَتَب أحدُنا على شخص، واستبطأ زيارَتَه أو اتصاله، وهذا المعاتَب مريض، أو نزلت به نازلةٌ اجتماعيةٌ لا يُحب أن يَعلم بها أحدٌ، «ومن لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما

(١) مسلم ح (٢٥٦٥).

(٢) مسلم ح (٢٥٨٨).

يأتون من المكروه، وترك التوقّع لما يأتــون من المحبوب؛ كان إلى تكدير عيشـــه أقرب منه إلى صفائه، وإلى أن يدفعه الوقتُ إلى العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد وترك الشــحناء»[1]، وصدق مَن قال: «ومَن أحوجك إلى العتب؛ فقد وطّن نفسَه على الهجرة».

- وثالث هــذه المنغصّات في العيــد -وهي أحدُ أســباب القطيعة في الســنوات الأخيرة في مجتمعنا- هــو ما يحصل مِن توسّــعِ عددٍ من النســاء في اللباس، بحيث تتجاوز ما يمليه الحيــاء، وتوجبه المروءةُ مِن مراعاة اللبس المحتشــم، ولربما استحضرتْ بعضُ النساء بعضَ الأقوال الفقهية التي تتحدث عن عورة المرأة أمام المرأة، وليس المقامُ هنا مقامَ حديثٍ عن البحث الفقهي؛ بل المراد أن المرأة العاقلة تراعي الجوانبَ التربوية، وآثارَ هذا التوســع في مثل هذه الألبسة، وخطرَها على الأجيال الناشــئة، فمِــن المعلوم أن هذا التوســع لم يأتِ في يوم وليلة، بل كانت بدايتُه بتوسّعٍ قليل حتى وصل الحالُ إلى مآسٍ يندى لها جبينُ الحياء؛ مِنْ كشــفٍ لمواضع من الجسد يستحي الإنسانُ من ذكرها! وهكذا بدايةُ تفشّي السفور في بعض بلاد الإسلام كما لا يخفى.

ولنا أن نتســاءل: ماذا يُتوقع من طفلةٍ تنشــأ في أجواء كهذه؟ وكيف سيكون لباسها بعد سنوات حين تبلغ ســنَّ النساء البالغات؟ ألا يكفي تكسّر هيبة الحشمة في نفسها؟ وانهيار حاجب الحياء من اللبس العاري؟

وهذا النوع من الألبســة مع مخالفته لظاهــر النصوص التي تأمر بألا

(١) روضة العقلاء (ص٧٢).

تكشــف المرأةُ إلا ما جرت العادةُ بكشــفه عند محارمها من الرجال؛ إلا أنه أيضًا -وهذا من شــؤمه- ســبَبٌ في قطيعة بعض الأُسر لاجتماعات أقاربهم! بســبب إصرار بعض الأخوات -هداهــن الله- على هذا النوع من الألبســة، وكأن الجمال لا يتم إلا بهذا التعري! فتحّول العيدُ إلى زمنِ شحنٍ للنفوس على بعض، بدلًا من صفائها واجتماعها!

وإني أوجّه دعوةً لكل رجــلٍ ولّاه اللهُ أمرَ زوجةٍ أو بنتٍ أن ينتبه لهذا الأمــر: «فكلكم راعٍ وكلكم مســؤول عن رعيتــه»[1]، وأهيب بأختي المسلمة -أُمًّا كانت أم زوجة- أن تتقي الله تعالى فيما تلبس، وأن تعلم أن الله ســائلها عما تحتها من البنات، «**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**»، ولتتذكر أن ضغط الواقع -الذي تحتج به بعضُهن- يَذهب من قلبهــا إذا تذكرت أمثال هــذه الآيات التي تصــف هذه اللحظات المهيبــة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[البقــرة:٢٨١]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾[مريــم:٩٣-٩٥]، ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[النحل:١١١].

وبالجملة، إذا لم يكن العيدُ فرصة للتصافي، وإظهار مشــاعر البهجة والفرح، وزيادة عُرى المودة والمحبة؛ كان مجرّد ورقة على التقويم مكتوب فيها: (١ شوال)! فرحم الله مَن كان سببًا في شيوع الرحمة، وجمع الشمل، وإرضاء الرحمن، وإغاظة الشيطان، في هذا اليوم العظيم، الذي جعله اللهُ يومَ فرحٍ وسرورٍ، ويومَ شكر على تمام النعمة، وإكمال العِدّة.

---

(١) رواه البخاري (رقم٨٩٣)، ومسلم (رقم١٨٢٩).

المبدأ

٧/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

حدّثني أحدُ الأصدقـــاء أنه انخرط في لجنةٍ من اللجـــان، وحُدّد لها وقتٌ دوريٌّ تجتمع فيه، وكان رئيس اللجنة يحدّد الاجتماعَ بوقتٍ معيّن، فيقول صاحبي: كنتُ أحرص عـــلى الحضور في الوقت، ولكنني ضِقتُ ذرعًا بأكثـــر أعضاء اللجنة الذين يتأخرون مـــن عشر إلى عشرين دقيقة عن الوقت المحدَّد! فقـــررتُ أن أتأخر مثلَهم، وصارحتُ رئيسَ اللجنة بذلك، إذِ التأخر -بحســـاب الزمن التراكمي- ســـأخسر معه ساعةً من الزمن خلال شـــهر، ونصفَ يوم في سنة، فقال لي رئيس اللجنة: لا تترك مبدأك؛ لأن غيرك لا يلتزم به! فانتفعتُ بكلمته هذه في حياتي.

هذا الموقف يتكرر في حياتنا بصور كثيرة، وعلى أصعدة مختلفة، فتجد كثيرًا من الناس يضحّي بمبادئه؛ لأن الآخرين أخَلّوا بها معه!

والمتأمل في السُّـــنّة النبويـــة يجد أن هذه القضية كانـــت واضحةً تمام الوضوح في ســـيرته ﷺ، فلم يكن ليترك مبادِئـــه وأخلاقَه لأن خصمَـــه أو الطرفَ الآخر أخـــلّ بها، أو قصّر فيها، فكـــم لقيَ مِن قومِه

ما لقـــي، وعانى ما عانى، فلم يجـــد منهم، -وهو في مقـــام القدرة على القصاص- إلا العفوَ والمسامحةَ؛ لأنها مبدأ عنده.

وفي سبيل ترسيخ الثبات على المبدأ، وعدم التنازل عنه لأن الشخص المقابل قصّر فيه؛ تأتي تربيـــةُ الله لنبيّه ﷺ بقوله: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾[الأعراف:١٩٩].

وكان النبي ﷺ يُربي أصحابَه عـــلى ذلك قولًا وعملًا، ومن ذلـــك: أن رجلًا قال: يا رســـول الله، إن لي قرابة أصِلُهـــم، ويَقطعوني، وأُحسِن إليهم ويُســـيئون إليّ، وأَحلم عنهم، ويَجهلون عليّ، فقال: «**لئن كنتَ كما قلت، فكأنما تسَفُّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك**»(١).

ويقـــول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ما منعني أن أشـــهد بـــدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حســـيل، قال: فأخَذَنا كفارُ قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريـــد إلا المدينة، فأخذوا منا عهدَ الله وميثاقَه لننْصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر؛ فقال: «**انصرفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين اللهَ عليهم**»(٢)، وقصة أبي جندل رضي الله عنه أيامَ صلح الحديبية ليســـت ببعيدة، وفي هذين الموقفين جميعًا -وغيرهما- يرســـلُ النبيُّ ﷺ رســـالةً واضحة، وهي أن الصدقَ والوفاءَ بالعهد دينٌ ومبدأٌ، لا يُتْركان لحرب، ولا عداوة.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٥٨).

(٢) رواه مسلم (رقم١٧٨٧).

وفي حياتنـــا اليومية قد يُبتلى بعضُنا بأنـــاسٍ -كما ابتُلي ذلك الصحابيُّ الـــذي وجد الجفاءَ من قرابتـــه، وكما ابتُلي صديقي الـــذي أشرتُ إليه- بموقفٍ لو أراد أن يعامِل بالمثل لســـاغ له ذلك، لكن هذا ليس من شأن النبلاء والكُمَّلِ من الناس؛ لأن العاقلَ يصون مبادئَه كما يَصون سُـــمْعتَه وعِرضَه.

ومن النماذج المشرقة من حياة الدعاة المعاصرين، ما ذكره الدكتور تقي الدين الهلالي عن نفســـه، في كتابه الماتع (الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة)، حيث التزم مبدأ الصدق في جميع الأحوال والظروف الصعبة التي مرّ بها، واختار لنفســـه عدمَ الأخذ بالمعاريض -ولو مع الأعداء- لأنه يرى أن الداعيةَ يَسقط إذا لم يَصدُق، وأن تاجَ دعوته ورأسَ ماله فيها هو الصدق!

وما من شـــكٍّ أن التربية على هذا المبدأ ينبغي أن تبقى أصلًا لا يتنازل عنه الإنسان، ويبقى تقديرُ الشخص للمواقف الفردية، وما ينبغي تجاهها خاضعًا للظـــروف المحيطة بكل موقف، والموفَّق من رُزِق الحكمة، ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.



الثروة المُهدَرة

١٣/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

جمعني لقاءٌ قبل يومــين بأحد طلابنا المبتَعثين للدراســة في أمريكا، فســألته في رحلته -التي امتدت ثلاث سنوات ونصف تقريبًا- عن أبرز ما اســتفاده مِنها، فذكر لي أمورًا، ونصّ على أن أهمها هو: الإحســاس بقيمة الزمن، والحياة لهدف! حتى إنني أتضايق، وأشعر بالغبن حينما أرى أصحابي الذين كنتُ معهم قبل الســفر، ما زالوا يُهدرون هذه الساعات الطويلة بلا مقابل؛ من إنتاج ينفعهم، وينفع بلدَهم وأمَّتهم!

فقلتُ له: ألا تعتقــد أن ديننا يحث على ذلك، ويُعين عليه؟ قال: بلى، لكــن البيئة التي نعيش فيها تقول: لا! هنــا توقفتُ قليلًا، وبدأتُ أقلّب الفِكر سريعًــا: هل بيئتنا كذلك، فوجدتُ الأمر -إلى حد كبير- كذلك!

ومن المحزن أن تكون النتيجة كذلك، والمسلمُ يقرأ في (جزء عمّ) فقط عشرات الآيات التي تتحدث عن الوقت، إما قسَمًا به، أو إشارة إلى أهميته وفضله، ومع هذا فحال المسلمين عمومًا في إهدار هذه الثروة يَبعث على الأســى، وتتجلى هذه المأساةُ بأبشــع صورها في الإجازة الصيفية، التي يتخفف فيها ملايينُ الطلاب والمعلّمين من الارتباط بالمدارس النظامية!

إن الحديث عن (اغتنام) الوقت لا يعني عدمَ التَّوسعة على النفس في المباح، كلا! وإنما الحديث عــن (ثروة مهدرة) يراها العاقل تذوب أَمامَه ككرة ثلجٍ ضخمة وُضِعت في ردأة الضحى، والشمسُ في قمّة حرارتها.

إن غيابَ الهدف الواضح من الحياة، وضعفَ اســتحضارِ النصوص الشرعية التي تدفعُ بالنفس لتحرص على الوقت؛ لمن أعظم أسباب تفشي هذا الهدْر المؤلم للحياة.

لا أدري كيف يمرُّ حديثٌ كهذا على مسلمٍ، ولا يحرّك فيه ساكنًا تجاه هذا الوقــت: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»![1] ألا يجد في كلمة «مغبون» ما يحفزّه للغيرة على وقته؟!

لقد فَقِهَ ســلفُنا الصالحُ قيمــةَ الزمن، وعرفوا أهميــة الحفاظ عليه؛ فعبّروا عن ذلــك بكلمات كثيرة ومتنوعة[2]، ومن أحســن ما مرّ بي من تلكــم الكلمات، كلمة يحيى بن معاذ الــرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «الفوت -ضياع الوقت- أشــد من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق»[3].

ومَنْ طالع (صيــد الخاطر) لابن الجوزي؛ أحسّ بالزفرات تنطق من بين الأســطر على تفريط أكثر الخلق في أعمارهم، وهو الذي أرسل تلك النصيحة لولده، بعد أن ذاق الأبُ لذةَ اغتنــامِ الوقت، وبركةَ المحافظةِ

---

(١) رواه البخاري (رقم٦٤١٢).

(٢) وقد كُتب في الــكلام على الزمن وأهميته كتب كثيرة، منهــا: (قيمة الزمن عند العلماء) لعبدالفتاح أبو غدة، و(سوانح وتأملات في قيمة الزمن) لخلدون الأحدب.

(٣) وفيات الأعيان (٦/ ١٦٥).

عليه، قائلًا: «الكسلُ عن الفضائل بئس الرفيق! وحبُّ الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه! واعلم يا بني، أن الأيام تبسط ساعات، والساعاتُ تنبسط أنفاسًا، وكل نفَسٍ خزانة، فاحذر أن يذهب نَفَسٌ بغير شيء، فترى في القيامة خزانة فارغة، فتندم!»[1].

إننا أمام ثقافة ســيئةٍ في المجتمع، وهي التفنن في تضييع الزمن، وإن شــئت فقل: في قتل الحيــاة، ونحرِ الوقت، ولا بد مــن تكاتف الجميع لتخفيف آثارها.

وفي تقديـــري أن أول العلاج يبدأ من البيت، فــإن البيت الذي يربّي أفــرادَه على الحفاظ عــلى (الحياة)؛ سينشــأ أكثر اهتمامًــا من غيره -في الغالب- بالوقت، ومحاولة استثماره.

إن من أهمّ مــا يتلقاه أفرادُ الأسرة، وطلابُ المــدارس من والديهم ومعلميهم هو: ثقافة الغيرة على الوقت، وبيان سبل المحافظة عليه، التي من أهمها وأعظمها أثرًا:

- تنظيم الأعمال وجدولتها.
- والبعدُ عن مجالس الفارغين الذين لا أهداف قيّمة لهم.
- وتركُ الفضول في كل شيء.
- ومصاحبةُ الجادّين، الحافظين لأوقاتهم.
- وقراءةُ أخبار المؤثرين في مجتمعاتهم.

---

(١) لفتة الكبد في نصيحة الولد (ص٥).

- والتلذذُ بحلاوة الإنجاز للأعمال.
- وسؤالُ الله من قبلُ ومِنْ بَعْدُ البركةَ في الوقت.

فهـــذه كلها من أعظـــم الحوافز على معرفة شرف الزمـــان واغتنامه، وتقوّي في القلب الغيرة على ضياعه، أشـــدّ من غيرته على ضياع شيء مِن ماله.



الرموز في مرمى الغلاة

١٩/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

مصطلح (الرموز) في حديث الناس يشـــير إلى بعض فئات المجتمع ذات التأثير فيه؛ كالسياسي، والشرعي، والاجتماعي.

والرموز الشرعية هي أكثر هذه الفئات التي يحرص الغلاةُ -وعموم المنحرفين فكريًّا- على إسقاطها، لعِلمهم بقوة تأثيرها -ليس على شباب بلادهم فحســب، بل- في العالم أجمع، وهم في هذا يطبّقون -شعروا أم لم يشــعروا- الطريقة اليهودية التي نصّـــت عليها (بروتوكولات حكماء صهيون)، التي تقول: «وقد عنينــا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدّين في أعين الناس -ويعنون برجال الدين هنا: العلماء من غير اليهود-، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبة كؤودًا في طريقنا، وإن نفوذ رجال الدِّين على النـــاس ليتضاءل يومًا فيومًا»[1].

بــل هذا منهــجٌ معروفٌ ســلكه قديــمًا رؤوسُ أهل البــدع؛ فهذا عمرو بن عبيد -أحــد رؤوس المعتزلة- يقول: «لو شــهد عندي عليٌّ،

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون (١٨٧).

وطلحـــة، والزبير، وعثمان؛ عـــلى شِراكِ نعل ما أجزتُ شـــهادتهم!!»، وقال مَرةً مستنقصًا الإمامين الحســـن البصري، ومحمد بن سيرين: «ألا تسمعون من كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعون إلا خِرَق حيضة مطروحة؟!»[1].

فما أشبه الليلة بالبارحة! فأربعة من المبشَّرين بالجنّة لا تُقبلُ شهادتهم عند هذا الرقيع! واليوم يردِّدُ بعضُ الغلاة ومَن شـــابههم عبارةَ عمروٍ في علماء كبار، ويقولون عنهم: إنهم علماء حيض ونفاس!

إن الشـــاب في بواكير عمره يحتاج إلى قدوة يتمثّلها، ورمزٍ يتأسّى به، وفي البيئة المتديّنـــة تبقى فئةُ العلماء الكبار، والدعـــاةُ المؤثّرون؛ من أكثر الرموز الشرعيـــة تأثيرًا في هذه الطبقة، وكلما كان (الرمز) ذا قَدرٍ ومكانة كبيرة في نفس الشاب؛ صار مصدر إلهامٍ للشاب في حياته، ودافعًا للعمل ومزيدٍ من الفأل، فإذا حُطّم الرمزُ في نفســـه؛ فهذا يعني تحطّمَ مستقبله، وإغلاقَ نافذة الفأل التي يتنفس منها عبيرَ الأمل في هذه الأجواء المحزنة!

لهذا يلجأ الغلاة -مثل داعش وغيرهم- إلى الطريقة اليهودية في تشويه صورة هذه الرموز! يَسْبِقُ هذا كلّه حملةٌ ضخمة لتشويه الدولة التي ينتمي لها، فيُصَوَّرُ هؤلاء العلماء والدعاة في ذهن الشـــاب أنهم علماءُ سلاطين، وعُبّادُ مناصب، وطُلّابُ مال، في دأَبٍ عجيب على طمسِ عشراتِ السنين التـــي بَذَلها هؤلاء العلماءُ والدعاة في تعليم الناس ودعوتهم، وإن وجدوا زلةً هنا أو هناك ضخّموها، وأشهروها؛ في شحنٍ متواصل لتحطيم هذه الرموز في عقل هذا الشـــاب حتى تتهاوى تلك الرموزُ أمامَ عينيه، فبدلًا

(١) ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٥).

مـــن بقاء هيبةِ التقدير والإجلال اللائق بهم؛ تتحطم هذه الصورةُ لينتقل ذهنُه مباشرةً إلى الطرف الآخر، ليكون مشـــاركًا في هذه الحملة بنفســـه، وتبدأ معها رحلـــةُ البحث عن رموزٍ أخرى -إذْ لا بد له من ذلك- فأين هذه الرموز؟ وما صفاتهم؟

هنا يبدأ الدواعش -وأشـــباههم من الغلاة- في طرح (نماذج مُلْهِمة) للشـــاب، ورموزٍ منتقاة بعناية، تلتقي مع روح الشـــاب المحطّمة، التي صـــارت تلهث للبحث عن رمـــزٍ تَقتدي به بعد ســـقوط رموز بلده من ذهنـــه، فيُظهرها التنظيم في صورةِ مجاهدٍ، فـــارق أهلَه وولدَه ووطنَه من أجل إعلاء كلمة الله! وضحّى بدنياه الزائلة! ثم يحرصُ هؤلاء على إبراز الصـــورة الرمزية التي يظهر بها هؤلاء القدوات الجدد، فهو يظهر بلباسٍ خاص -عمامة وقميص وإزار-، وشـــعرٍ طويل، يحمل الســـلاح، وربما وضعه خلفه، في صورةٍ تجعله يتصـــور الفاتحين الأوائل -وهذا مقصودٌ منهم-، ليرســـخ في ذهنه أن هؤلاء هم القـــدوات الحقيقية الذين يجب التأسي بهم، واللحـــاقُ بركْبهم، وأنهم في غايـــة الطُّهر والنقاء! بخلاف القدوات الأولى التي كان يحترمها، فهي عنده غارقةٌ في الفساد، ومنغمسةٌ في الدنيا، يجب إسقاطُها فضلًا على أن تكون محلّ تأسٍّ واقتداء!

إن تحطيمَ الرموز الشرعية لا يعود ضررُه على الشاب وحدَه، بل على الأمّة كلها؛ لأن هذا يعني باختصار: اســـتيراد (رموز مجهولةٍ) لا يُعْرفُ تاريخها، ولا ســـابقتها في علـــمٍ ولا جهادٍ صحيح، بل قـــد تكون تابعةً لاستخبارات أجنبية موجّهة ضد دينه وبلده الذي خرج منه، وحينها لا تســـلْ عن الآثار المدمّرة لعقل هذا الشـــاب ووعيه، فهل أدركتَ -أخي

الشاب- كيف يخطِّط الغلاةُ لاختطاف عقلك؟ وجَعْلِكَ في خندقٍ بعيدٍ عن الرموز الحقيقة التي عرفها الناسُ بعِلمِها ودعوتها؟ لتكون في محضنِ وتوجيهِ أناسٍ لا يمكن أن تَكتب عن أحدهم ربعَ صفحة تعرّفك بحاله وشخصيته، بل أقصى ما تعرفه لقبٌ وكنيةٌ وشابٌّ حديث السنّ، لم تعركه التجارب، ولم يرســخ في علم! فهل تجعل دينك وحياتك رهنًا لهؤلاء؟ وقد قال السلف: «إن هذا العلم دِين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم»[1].



(١) انظر: سير أعلام النبلاء. ط الرسالة (٤/ ٦١١)، (٥/ ٣٤٣).

نفحةٌ مكيةٌ

٢٥/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

ليس شيء أحبّ إلى القلب من تلك اللحظات التي يُوَفّقُ فيها لزيارة المســجد الحرام، والتمتع برؤية الكعبة المشرفة، فإنها ليســت مجرد زيارةٍ للبيت الحرام، وإتمامٍ لمناسك الحج أو العمرة، إنها أبعدُ من ذلك!

لقد طاف بي طائفٌ من الذكريــات التاريخية حين زرتُ مكةَ المكرمةَ شرّفها الله -في الأســبوع الماضي- بل يَرِدُني هذا كلما زرتُ البيتَ الحرام، وتساءلتُ وشريطُ الذكريات يمرُّ كلمح البصر، أَنْظُرُ هنا وهناك، وأقول في نفــسي: هنا كان صناديــدُ قريش، وهم يجتمعــون في منتداهم بجوار الكعبة؛ ليمارســوا عادتهم في الســخرية والصد عن الاستماع لهذا النبي الجديد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وهناك لاحتْ لي صورةُ قيامِ أشــقاهم ليُلقي سلا الجزور على ظهره الشريف صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ســاجد، ولم يجد له في تلك الســاعة مُعينًا من الناس إلا ابنته الصغيرة فاطمة، التي لم تملك حينها إلا إرســال رســائل الشتم لهم على ســوء صنيعهم! أما هو صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يَرُعْهم إلا وهو يرفع يديه قائلًا: «**اللهم، عليك المــلأ من قريش، اللهم، عليك أبا جهل**

ابن هشـــام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأميّة ابن خلــف، أو أبي بن خلف»[1]، فأصابتهم الدعـــوةُ؛ فجمعهم الله شّر مجمَع في قليب بدر، وهم جيف!

وحـــين وقفتُ على الصفا، تذكرتُ صعـــودَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه مناديًا ذلك النداء المشـــفِق: «يا صباحاه»! فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بنـــي فلان، يا بني فـــلان، يا بني عبـــد مناف، يا بني عبـــد المطلب»! فاجتمعـــوا إليه، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلًا تخرج بسَـــفْح هذا الجبـــل؛ أكنتم مصدِّقيّ؟**» قالوا: ما جرّبنا عليـــك كذِبًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يَدي عذابٍ شـــديد**»، قال: فقال أبو لهب: تبًا لك! أما جمعْتنا إلا لهذا؟! ثم قام، فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد:١][2].

سبحان الله! كم هي وقاحة عمّه هذا الذي قابله بهذا السوء! أَمَا إنه لو ســـكت لكان أهون، ولكن: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[المائـــدة:٤١]، فاستمر هذا الشـــقيُّ أبو لهب محرّضًا على ابن أخيه، بل ومتتبعًا للناس في موسم الحجّ محذِّرًا من اتباعه!

فقلـــتُ في نفسي -وأنا أرى أمامي مســـلمين من الصـــين، وإفريقيا السوداء، وأوروبا، وشرق آســـيا، والهند، فضلًا على بقية العرب-: أين أنت أيها الشـــقي؟ لِترى كم هم الذين يقولون: أشـــهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله؟! قالوها وهم لم يَروه، وأحبّوه، ولم تكتحل

---

(١) رواه البخاري (رقم٣١٨٥)، ومسلم (رقم١٧٩٤)، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري (رقم٤٧٧٠)، ومسلم (رقم٢٠٨).

عيونُهم بلقياه، ولو طُلبتْ أرواحُهم فداء له لقدّموها زرافاتٍ ووحدانًا!
أيـــن أنت لتدرك هذه الحقيقة التي وعــد اللهُ بها -ومن أصدق وعدًا منه سـبحانه-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣٢-٣٣].

لقد كانــت منتديات قريش أول البعثة تعــجّ بمنكر القول والعمل، وبرمْي هذا النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنقائص، ولم يمض على هذا سوى زمنٍ يســير حتى صارت جنبــاتُ البيت الحرام تعــجّ بحِلَق الذِّكر التي لا يخلو درسٌ فيها من الإعلان لله بالتوحيد، ولنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة!

إنها مشاعر عابرة، لكنها تورث في القلب من المعاني الشيء الكثير..! إنها مشــاعرُ تزيد الإيمان، وتعزز اليقين بأن ديــن الله ظاهرٌ، وإن كاد له أعداؤه، وبــأن النصر له وإن حُورِب، ولكن مــن الذي يركب مراكب الشرف في نصرته والدفاع عنه، ونشر قِيَمِه ومبادئه؟

إن كل مســلمٍ يلتزم بالإســلام حقًّا، قولًا وعملًا، مظهرًا وسلوكًا؛ هو مســهم في ذلك، فالنصرُ ليس بالسيف والدبابة فحسب، بل هو نصرٌ تتنــوع صورُه، إنه دينٌ ينتصر بالقيم والأخلاق -كما انتصر بها (الصادق الأمــين) صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وينتصرُ بالعلم النافــع والعمل الصالح: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾[التوبة:٣٣]، وينتصرُ بالســيف -إذا وُجد ســببه- فهنيئًا لمن نصر اللهُ به دينَه، والويل لمن صدّ عنه بقوله وفعله، أو حاربه بماله وإعلامه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[الأنفال:٣٦].

معلّمٌ في ذاكرة تلميذ

١/١١/١٤٣٦هـ

دعني أنتقل وإياك -أخي القارئ الكريم- بمشـــاعرنا وأشواقنا إلى طيبةَ الطيّبةِ، حيث النبيُّ ﷺ يصلي بأصحابه رضوان الله عليهم، وكان فيهم معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه الذي حدّثنا عن قصته التي وقعت حين عطــس رجلٌ من القوم، قال: فقلـــت: يرحمك الله؛ فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثكل أمّياه! ما شأنكم تنظرون إليّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم! فلما رأيتُهم يصمّتونني -أي يسكتونني- ســكتُّ، فلما صلى رســولُ الله ﷺ، فبأبي هو وأمـــي، ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحســنَ تعليمًا منه، فوالله ما كهَرني، ولا ضربني، ولا شــتمني! قال: «إن هذه الصلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن»(١).

هــذا موقفٌ بين ســيّد المعلّمــين وإمامهــم ﷺ، وبين أَحد تلاميــذه، عالجَ فيه الخطــأَ الذي وقع فيه تلميذُه بأســلوبٍ بقي أثرُه في وجدانه محفورًا، فصــار يحدّث به بعد ذلك حديثَ المعجَب بأســلوب

(١) رواه مسلم (رقم٥٣٧).

معلّمه، وطريقة إرشاده! استدعاه، ثم أخبره بالخطأ، ولم يبادره بالتعنيف أمامَ النـــاس، ولا بالتبكيت بينه وبين تلميـــذه، ولا عبس في وجهه، ثم شرح له وجـــه الخطأ الذي وقع فيه، وبيّن الطريقـــةَ الصحيحة، كلّ هذا جعلـــه يقول وبصوت مســـموع: «فبأبي هو وأمي، ما رأيـــتُ معلمًا قبله ولا بعده أحســـن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني!» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تذكرتُ هذا الموقف، وأنا أستمع لصديقي الذي يحدّثني -وبمرارة- عن موقفٍ حصل له مع أحد أســـاتذته في المرحلـــة الابتدائية -أي إنهم أطفال صغار-، حيث دخل الأســـتاذُ ومعه عصًا غليظة، فأمرني وبعضَ الزملاء بالقيام والاصطفاف صفًّا إلى الجدار، وبدأ بضربنا واحدًا واحدًا، ومن شـــدة الضرب فإن أحد مَنْ كان ينتظر دورَه في هذا المشـــهد أُغمي عليه قبـــل أن يَصِله الدَّور!! ثم يواصل صديقـــي حديثَه قائلًا: إلى هذه اللحظـــة -وقد مضى على هذا الموقف قرابـــة الأربعين عامًا- لا أدري لِمَ ضُرِبْنا؟! وما الجُـــرْم الذي أخطأنا فيه لنُعاقَب هذا العقاب؟! ووالله كلما تذكّرتُ أحاديثَ الصفح والعفو في عرَفة والعشر الأواخر يلوح لي ذلك المعلّم، فأجاهد نفسي، وأغالبها على العفو عنه؛ فلا أستطيع، أو أجد كُلفة شديدة في هذا!

تأمـــل الفرق -أخي القارئ- بين الموقِفـــين! كلاهما بقي في الذاكرة، لكن شتّان بينهما!

فرقٌ بين تلميذ يتحدّث بشوق وحب عن معلّمه الذي أرشده، وبيّن لـــه وجهَ الصواب، ولم يواجهه بما يكره، وبـــين تلميذٍ ترى انعقادَ جبينه،

وتسمع حشرجةَ صدره، وتشـــعر بضيق نَفَسِه وهو يتحدث عن مدرس ظلَمه، وضرَبه بغير حق!

يمــرُّ علينا -معشرَ المعلمين والمعلّمات- مئــاتُ وربما آلافُ الطلابِ في مدارســنا وجامعاتنا، وقد لا يبقى في ذاكرتنــا منهم إلا القليل، لكن من المؤكّد أننا -وبفضل الله- نستطيع أن نحفر أسماءَنا في ذاكرة تلاميذنا بحسنِ تعاملنا، وجميلِ أخلاقنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، فليس بالعلم وحْده نستطيع أن نكســب تلاميذَنا، ونجعل ذلك وسيلةً لإيصال الحق والعلم الذي نعلّمهم إياه، بل هذا -كما يشهد التاريخُ والواقع- لا يكفي ما لم يقترن بخُلُق حســن، ورحمةٍ بالمتعلِّم، وفي التنزيل -في معرض الثناء على الخــضر عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[الكهف:٦٥].

لقــد كنا طلابًا قبل أن نكون معلِّمين، فلننظــر في الذي كنا نحبّه من أساتذتنا وشيوخنا من جميل الفعال؛ فلنفعله مع طلابنا، فإنهم يحبون هذا منّا، والعكس بالعكس.



هبوط قلبٍ في مدرج المطار

٧/ ١١/ ١٤٣٦هـ

كان صاحبي في طريق عودته من ســـفرٍ خارجـــي، وفي أثناء صعوده للطائـــرة؛ أصابه هبوطٌ مفاجئ في القلب، وبعـــد الاطمئنان على حالته؛ أقلعت الطائرة، وفورَ وصوله ذهب صاحبي إلى قِســـم الطوارئ في أحَد المستشفيات القريبة من مطار الرياض؛ ليطمئن على حالته قبل شروعه في سفرٍ جديدٍ، ثم بعد يومين ذهب صاحبي لطبيبٍ استشاري متخصص في أمراض القلب، وبعد الفحص تبيّن له أن عنده إجهادًا وتوترًا شديدين، ونصحه الطبيبُ بالتخفيف عن نفسه، وقال له -بعد أن استمع لحالته-: لقد مرّ بي أناسٌ مثلك ممن قال فيهم المتنبي:

وإذا كانتِ النـفـوسُ كبــارًا

تَعبتْ في مرادِها الأجســـامُ

ولكنك يا أخي، لن تســـتطيع أن تأتي على كلِّ أعمالك في وقتٍ قصير، فَقَلّ مَن مات وليس له حاجة ما قضاها، على حدّ قول الصَّلَتان العَبْدي:

نـــروحُ ونـغـدو لحــاجـاتِنــا

وحــاجـةُ مَنْ عــاشَ لا تَنقـضي

تمـوتُ مـع المـرءِ حــاجــاتُـه

وتَبقى لـه حــاجــةٌ مـا بقـي!

فارفق بجسدِك، وأعطِه حقَّه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا؛ فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه**»[1].

واســتطرد الطبيبُ قائلًا: أُكْبِرُ فيكم أخي، هــذه الهمّة، ولكن ليس صحيحًا أن تُهمِلوا أجسادَكم، والاستمتاع بحياتكم، وتُقصِّروا في ذَوق متعة الجلوس مع أولادِكم وأهلِكم بحجّة أنكم مشــغولون! أو تُهمِلوا رياضــةَ أبدانكم ولو بالمشي! حتى إذا ســقَطَ أحدُكم بجلطة، أو مرضٍ مُقعِد؛ ذهب يلتمس الحلّ، ويُعيد حســاباته! وقد كان بإمكانه أن يتلافى ذلك بفضل الله.

خرج صاحبي مــن الطبيب، وهو يفكّــر في كلام الدكتور الناصح، ويتأمل فيما قاله؛ فوجد أنه بالفعل يحتاج إلى مراجعةِ حســاباته فيما يخص زحمةَ جدول أعماله، وإرهاق نفسه بما قد يقطعه عن الاستمرار في العطاء بعد سنوات قليلة، وهو لا يزال بعدُ في قوّته!

هنا، لاح لصاحبــي حديثٌ عن عبدالله بــن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة تشديده على نفسه بالعبادة، حين قال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عبدالله، ألم أُخــبَر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟**»، فقلت: بلى، يا رســول الله، قــال: «**فلا تَفعل! صمْ وأفطرْ، وقمْ ونمْ؛ فإن لجســدك عليك حقًّا، وإن**

(١) رواه البخاري (رقم١٩٦٨).

لعينــك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّــا، وإن لزَوْرك عليك حقًّا، وإن بحسْــبِك أن تصوم كلّ شــهرٍ ثلاثةَ أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، فشدَّدتُ؛ فشُدّد عليّ، قلت: يا رسول الله، إني أجد قوةً! قال: «**فصم صيامَ نبيِّ الله داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **ولا تَزِد عليه**»، قلــت: وما كان صيام نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قال: «**نصف الدهر**»، فكان عبدالله يقول بعدما كَبِر: يا ليتني قَبلتُ رخصةَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!(١).

إن هذه الوصيــة النبويــة العظيمة؛ نموذجٌ مــشرِق لحرص الشرع على توازن الإنســان بين مطالب الروح والجسد، وعدم النظر إلى الحال الحاضرة فقط، بل يعيــش وفق قاعدةِ: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا**»(٢).

إن قصة صاحبي، وما ســبق من حديث الطبيــب؛ لا يخصّ العلماءَ المنشــغلين بتعليم الناس أمرَ دِينهم، ولا الدعاةَ الذين يَتنقّلون بين المدُنِ والقرى، ولا للتجّار الذين ألهاهم الصَّفْقُ في الأسواق، وتتبُّع أخبارِ المال والعَقَار؛ بل هو رســالةٌ لكل مَنْ يركض لاهثًا في ميادين الحياة، أنِ ارفق بنفســك! وتذكّر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وجيشُ أســامة لم يذهب إلى الشــام، وســنموتُ ولنا حاجاتٌ وحاجات، ولْنُعطِ كل ذي حقٍّ حقّه: بدَنًا، وعَينًــا، وأهلًا، وزوجًا، وولدًا، وضيفًا؛ فهــو أصحّ بدَنًا، وأقوى قَلبًا، وأتقى دِينًا.

---

(١) هذا لفظ البخاري (رقم١٩٧٥).

(٢) روي هذا من قول عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما عند الحارث بن أبي أســامة (رقــم١٠٩٣)، وبعضهم يرويــه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو حديــث موضوع عليه، والصواب أنه مروي عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ينظر: المطالب العالية (١٣/ ٣١٤).

رؤوسُ أقلامٍ... في رؤوسِ أعلام[1]

(٣)

أيامٌ مع أمير المحققين

١٣/ ١١/ ١٤٣٦هـ

عشـــنا خمســـة أيام في جامعتنا الفتيّة -جامعةِ القصيم- عرسًا علميًّا مميزًا، بقدوم المحقق الكبير، (أمير المحقّقين) -كما يصفه به بعضُ محبّيه- أ. د. بشار عوّاد معروف العبيدي، صاحب التحقيقات العلمية الشهيرة الرصينة، التي ارتبطت باســمه ارتباطَ أســماءِ مؤلفيها بها، كـ (تهذيب الكمال) للمزي، و(تاريخ بغداد)، وغيرهما.

قد يظنّ بعضُ القراء الكرام أن نفعَ لقاءِ هؤلاءِ الأعلامِ -الذين أفنوا أعمارَهــم في البحث والتحقيق- مقتصرٌ على الفوائد العلمية فحســب! بل في لقائهم من الفوائد المتعلقة بســيرتهم البحثيــة، وحياتهم العلمية،

(١) هذه المقالة هي الجزء الثالث من سلســلة -غير مرتبة زمنيًّــا- بدأتُ الحديثَ فيها عن شــيخنا المحدث أ. د. أحمد معبد عبدالكريم، ثم عن فضيلة الشيخ المحدث أبي إسحاق الحويني -حفظهما الله-.

والصعوبـات والعقبات التي واجهتهم؛ مـا لا يمكن تحصيلُه في كتابٍ معـاصرٍ، وله من الأثر المعنويِّ في نفوسِ الباحثين ما هو معلومٌ لكل مَن لقي الكبارَ في كل مجال.

ومَـن الذي يُنكِـرُ تأثيرَ مشـاهدة القُدوات العلميـة أو العملية في الإنسـان! ألسنا نجد في أنفسـنا أثرًا إذا لقي أحدُنا عابدًا أوّاهًا، أو باذلًا خفيًّا، أو ذا خُلقٍ عظيمٍ؟

لقد كانت لقاءات د. بشـار عامرةً بالبحث والإفادة، خاصةً في مجاله الـذي برّ فيه كثيرًا مِن أشـياخه، بَلْه أقرانه، وهو تحقيـقُ كتب التراث، وضبطُ النصوص.

وقد منّ اللهُ عليّ بحضور أربعةٍ منها، لعلي أسجّل أهم المعالم التي أرى تدوينها في هذه العجالة، ما يفيد عمومَ القرّاء، دون الدخول في تفاصيل الفوائد، التي قد تُهم المختصين أكثر من غيرهم.

أولًا: تراءت لي هذه الجملة المشـهورة: «من لا تكون له بداية مُحرِقة لا تكون له نهاية مشرقة»، وأنا أسـمع حديثَه عـن بدايات طلبه للعلم، وما واجه من مشاق، بل ومِن تعرّضه لمحاولة الاغتيال مرات عدة! لكنه تجاوز ذلك كلَّه بفضل الله، ثم بعزيمة الرجال.

ثانيًا: ثمة شيءٌ لا تُخطئه أُذُنُ المسـتمع لأحاديث الدكتور بشار، وهو حبّه للعلم حبًّا بلغ مرحلةَ العشـق والهيام، وهذا -بعد توفيق الله- أحدُ أهم أسباب ما بلغه من الإنتاج الغزير، ودقّته أيضًا.

سمعته يقول -بعد أن اسـتُكْثر عليه كل هذا الإنتاج وحده-: كتبتُ بأصبعي هذه مئة وخمسين ألف ١٥٠ ألف صفحة!

وســـمعته يقول: إن تســـعين في المئة من أعمالي العلمية كان بعد نيلي درجة الأستاذية (بروفسور)!

تأمّل هذه أخي القارئ الكريم، واعرِض هذه الكلمة على واقع أكثر الذين ينالون هذه الدرجة، الذين يتوقف إنتاجُهم، أو يَضعف بعد نيلها! ووالله لكأنما أرســـلَ هذه الرسالة لنفسي المقصّرة، أســـأل الله أن يعينني، ويوفقني لاغتنام ما بقي من عمري.

لقد مرّت العراقُ -بلد د. بشـــار- بأحوالٍ وأهوالٍ تشيب لها مفارقُ الولـــدان، واضطرته الأحـــوالُ إلى أن يفارق بلدَه لا عـــن اختيار -وما أصعـــب هذا على النفـــوس!- وأن يترك كثيرًا من أموالـــه وأمتعته التي اجتمعتْ له في عشراتِ السنين؛ لينجو بدينه وبنفسه، واستقرت به عصا الترحال في المملكة الأردنية الهاشـــمية، التـــي أكرمته بما يليق به وبعلمه، وبما يليق بأخلاق سلالة البيت النبوي الشريف، وهو في كل ذلك لا يترك التحقيق، ولا البحث، بل أخرج بعد أن جاوز الستين عشراتِ المجلدات المحقَّقة تحقيقًا علميًّا قويًّا، وعلى رأس تلك الكتب: تحقيقه لتاريخ بغداد.

وهـــو الآن -وقد قـــارب الثمانين- يعمـــل على تحقيـــق كتابين من الموســـوعات التي تَنوء بهـــا مجامع علميـــة: (التمهيد) لابـــن عبدالبر، و(المحلّى) لابن حـــزم، بارك الله فيه، وأعانه على إكـــمال هذين العملين المهمّين.

ثالثًـــا: حرصـــه على وقته، بـــل وبذلـــه الأوقات الطويلـــة في العلم والتحقيق.

لقد كان د. بشار أيامَ شبابه وقبل أن تتقدم به السنّ يُمضي قرابةَ ست عشرة ساعة في القراءة والتحقيق، وتصحيح الكتب والملازم، ومع تقدّم السـنّ نقصتْ حتى بلغت تسع سـاعات! وهذا شيءٌ نادرٌ في الباحثين الشباب؛ فكيف بمن هو في عشر الثمانين! ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

وهذا الحرصُ الشديدُ على الوقت هو -بفضل الله- أحد أسباب هذا الإنتاج الغزير.

رابعًا: سُوق التحقيق كغيرها من الأسواق، فيها يتنافس المتنافسون، ومع طول باع هذا الرجل، وكثرةِ مَن يبيع، ويشـتري في هذا السوق، إلا أنه عفَّ اللسان، لم أقف له على سـبٍّ ولا شتمٍ، وهو إن قسا فإنما يقسو على العمل نفسه، مع البُعد عن تجريح الذوات.

بل سمعتُه مرات عدة -وهو يتحدث عن عمله في (المحلى)، و(جامع الترمذي)- يثني كثيرًا على الشـيخ المحقق أحمد شـاكر، ويعتذر له عن بعض ما وقع له من ملاحظات، مع انتقادِه له في منهجه في التحقيق.

وسـبحان الله! كم بين هذا المنهج وبين منهج بعضِ المحققين الذين يرون أنه لا يمكن أن يُثبت قوةَ تحقيقه إلا بنسف جهود مَن سبقه، والحطّ عليهم!

هـذه بعضُ المعالم التي أراها جديرةً بلفت النظرِ في سـيرة هذا العلَم الكبير، الذي أسأل الله تعالى أن يبارك في عمره، ويَنسأ في أَثَره، وأن يختم لنا وله بخير.

بَوح لجامعي مستجد

١٩/ ١١/ ١٤٣٦هـ

أحسب أن المرحلة الجامعية من أهم وأكثر المراحل التعليمية التي يشعر فيها الطالب بالاعتماد على نفسه بعد الله تعالى؛ لذا كانت هذه الأسطر التي ذكرتُ فيها شيئًا من تجربةٍ مضى عليها أكثر من عشرين عامًا، لا أزعم أن فيها جديدًا؛ لكن ربما كانت التجارب من أصدق ما يُنقل، فلأجيالنا الحاضرة حقٌّ علينا في نقل ما استفدناه، والتحذير مما جرّبناه، ولم نستفد منه، ولعل في نقل التجربة القريبة ما يعين على تحقيق أكبر المكاسب من هذه المرحلة (الذهبية) من عمر الشاب والفتاة.

مجموعُ الساعات التي يقضيها الطالب في هذه المرحلة أكثر من (ألفي ساعة) في المتوسط الدراسي وهو أربع سنوات، يتلقى فيها أنواعًا شتى من المعارف، ويلتقي أساتذةً تختلفُ مشاربهُم وطرقُهم في التعليم والتعامل، فماذا يعني هذا؟

الفَطنُ من الطلاب من صحّح نيّته في دراسته مهما كان تخصُّصه، ويتأكد هذا في طلاب العلم الشرعي، حتى لا تمضي عليهم ساعاتُ العمر دون قصدٍ حسنٍ، يضاعفُ الثوابَ، ويباركُ العملَ.

ومن علامة التوفيق للطالب أنك تراه متحليًا بزينة الأدب والخُلُقِ الحسن، عازمًا على الاستفادة من كل أستاذ في فنّه، مُعرِضًا عن أولئك الذين ينظرون للمدرسين بمناظير ضيقة لا تتجاوز المظهر! ويرى أن من نعمة الله تعالى عليه أن سخّر له بعضَ المتخصصين في فنونهم، ليفيد منهم فيما يُحسِنون، وألا يصدّه عن ذلك وجودُ ضعفٍ في بعض الأساتذة؛ لأنه يثقُ أنه ما من أستاذ يقف أمامه في الجامعة إلا وسيجد عنده ما يفيد، وإن قلّ.

وإذا غلب عـــلى ظنك -أيها الطالب اللبيب- أن هذا الأســـتاذ ليس بقوي في مادته؛ فاستفد من ذلك في حياتك العلمية بتقوية عِلْمِكَ؛ حتى لا تقــف موقفه في مســـتقبل أيامك أمام طلابـــك، أو أمام المختصين في المجال الذي ستختاره بعد التخرج.

والأســـتاذُ -مهما بلغ من العلم في تخصصه- قد تفوته أشياء، فليس من المناســـب إظهارُ الاســـتدراك بثوب التعالم، أو الاطلاع، ونحو ذلك من الصور التي تُخفي تحتها ألوانًا من الكبر والتيه العلمي -عياذًا بالله-!

ولا أنسى أحدَ الزملاء الذي كان يأسرني بأدبه وحسن خُلقه، إذا أراد الإفادة أو الاستدراك على أستاذنا؛ فهو يطرح السؤال بأدب جمّ يكسب به قلبَ أســـتاذِه، ويعطي به درسًـــا لزملائه في كيفية التنبيه والإفادة دون جرحٍ للمشـــاعر، أو اســـتعلاء بالمعلومات، فإن الكبرَ والاستعلاءَ أحدُ الحُجب الكثيفة التي تُعمي عن رؤية الحق، وإصابة المراد، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[الأعـراف:١٤٦]، قال ابن عيينة وغيره من السلف: أنزع عنهم فهم القرآن[١].

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٤٤٣).

وفي قصة موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ ألوانٌ من أدب الطالب مع شيخه، وإن كان الطالب أفضل من حيث الجملة -فكيف إذا لم يكن الأمر كذلك- حريٌّ بالموفّق مراجعتها والاستفادة منها.

ومِنْ أكثر ما استفدته في تلك المرحلة: صحبةُ الطلابِ الجادينَ الذين يُشـعرونني دومًا بأنني مهما بذلتُ من الجهد والقراءة والاطلاع ومعرفة جديد الكتب؛ فلا أزال مقصّرًا! فكنت أستقلّ كلَّ ما أفعل، مع نيةٍ شرودٍ بقصد المنافسـة -عفـا الله عنا جميعًا- فاحذر من صحبة الكسـالى، فإن صحبتهم جرَبٌ مُعْدٍ، وداءٌ مُرْدٍ، وخسارة محقَّقة.

ومن أعظم ما استفدته من تلك الصحبة: الحرصُ الشديد على الوقت، واغتنامُ الأوقات الضائعة بين المحاضرات، وحين انتظار وصول الأستاذ لقاعة الـدرس! فمِن طلاب الجامعـة من أنهى قراءة تفسـير ابن كثير (الأصل) في هذه الأوقات الضائعة، ومنهم من قسّم السنوات الجامعية ليحفظ فيها أصولَ العلم، فللقرآن سنة، وبعضهم جعلها سنتين، وباقي السنوات لحفظ أهم المتون الشرعية، فحفظ مختصرَ الصحيحين، وكتابَ التوحيد، و(نخبةَ الفكر)، و(الواسـطية)، و(الورقـات)، وغيرها من المتون التي انتفع بها في حياته العلمية بعد ذلك.

ومن الطلاب من جعل معه في سيارته -التي يتردد فيها مع زملائه- كتبًا يقرؤها بدلًا من تقطيع الوقت كلّه في الأحاديث التي يمكن الاكتفاء ببعضها، وتأجيل أكثرها.

وأحاذرك من بعض ما يفعله بعضُهم من القراءة في أثناء شرح الأستاذ بحجة اسـتغلال الوقت! مهما كان مستوى المدرس علميًّا في نظرك، فهو

كـــما لا يليق أدبًا ولا ذوقًـــا؛ ففيه من مداخل الشـــيطان والرياء ما يحبط العمل، ويمحق بركتـــه! وأيّ معنى لطلب العلم بلا إخلاص أو مجاهدة للقلب عليه؟ إنه كمَن يحشو جرابه ترابًا، يُثْقله، ولا ينفعه.

هذه بعض الخواطر التي سنح بها الخاطر، بمناسبة بدء العام الدراسي، أرجو أن تصل إلى قلوب من قصدتهـــم بها كما خرجت من قلبٍ يحبهم، داعيًا الله تعالى أن ينفع بهم الأمة جميعًا.



فهرس المراجع

١. الاستقامة. لابن تيمية الحراني. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة. الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢. بدائع الفوائد. لابن قيـم الجوزية. نشر: دار الكتـاب العربي، بيروت، لبنان.

٣. بلوغ المـرام من أدلة الأحـكام. لابن حجر العسـقلاني. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: سـمير بن أمين الزهيري. نـشر: دار أطلس للنشر والتوزيـع، الرياض - المملكـة العربية السـعودية. الطبعـة: الثالثة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٤. تاريخ بغداد. للخطيب البغدادي. تحقيق: الدكتور بشـار عواد معروف. نـشر: دار الغرب الإسـلامي - بيروت. الطبعـة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٥. التعازي. لأَبي الحسن المدائني. تحقيق: إبراهيم صالح. نشر: دار البشائر. الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٦. تفسـير الطبري - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ابن جرير الطبري. تحقيـق: الدكتور عبـدالله بن عبدالمحسـن التركي بالتعـاون مع مركز البحوث والدراسـات الإسـلامية بدار هجر الدكتور عبدالسند حسن

يمامة. نــشر: دار هجر للطباعــة والنشر والتوزيع والإعــلان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٧. التمهيد لمــا في الموطأ مــن المعاني والأســانيد. لابن عبدالــبر. تحقيق: مصطفى بــن أحمد العلــوي، محمــد عبدالكبير البكري. نــشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإســلامية -المغرب. عام النشر: ١٣٨٧هـ.

٨. جامع بيان العلم وفضله. لابن عبدالبر. تحقيق: أبي الأشــبال الزهيري. نــشر: دار ابن الجــوزي، المملكة العربيــة الســعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٩. الــدارس في تاريخ المــدارس. للنعيمي الدمشــقي (المتوفى:٩٢٧هـ). تحقيق: إبراهيم شــمس الدين. نشر: دار الكتب العلمية. الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٠. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. لابن حبان البُســتي. تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد. نشر: دار الكتب العلمية-بيروت.

١١. الزهد. لأحمد بن حنبل. وضع حواشيه: محمد عبدالسلام شاهين. نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٢. ســنن ابن ماجه. لابن ماجه. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبداللّطيف حرز الله. نشر: دار الرســالة العالمية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.

١٣. سير أعلام النبلاء. للذهبي. تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط. نشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٤. شــعب الإيــمان. للبيهقــي. حققــه وراجــع نصوصــه وخــرج أحاديثــه: الدكتــور عبدالعــلي عبدالحميــد حامــد. أشرف عــلى تحقيقــه وتخريــج

أحاديثـه: مختار أحمـد الندوي، صاحب الدار السـلفية ببومبـاي - الهند. نـشر: مكتبـة الرشـد للنـشر والتوزيـع بالريـاض بالتعـاون مـع الـدار السـلفية ببومبـاي بالهنـد. الطبعـة: الأولى، ١٤٢٣هــ - ٢٠٠٣م.

١٥. صحيح البخـاري. المؤلف: محمد بن إسـماعيل أبو عبـدالله البخاري الجعفي. تحقيق: محمد زهـير بن ناصر الناصر. نـشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي).

١٦. صحيح مسـلم. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت.

١٧. الصلة في تاريـخ أئمة الأندلس. لابن بشـكوال. عني بنشره وصححه وراجع أصله: السـيد عزت العطار الحسـيني. نـشر: مكتبة الخانجي. الطبعة: الثانية، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

١٨. صيد الخاطر. لابن الجوزي. بعناية: حسـن المساحي سويدان. نشر: دار القلم - دمشق. الطبعة: الأولى. ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٩. العقد الفريـد. لابن عبد ربـه الأندلسي. نشر: دار الكتـب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ه.

٢٠. عيون الأخبار. لابن قتيبة الدينوري. نشر: دار الكتب العلمية-بيروت. تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.

٢١. قصيـدة للدكتور عبدالرحمن العشـماوي، نُـشرت في (الجزيرة) بتاريخ ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٢٢. كتاب العلم. لابن عثيمين. تحقيق: صلاح الدين محمود. نشر: مكتبة نور الهدى.

٢٣. كشف المشكل من حديث الصحيحين. لابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. نشر: دار الوطن-الرياض.

٢٤. لسان الميزان. لابن حجر العســقلاني. تحقيق: دائرة المعارف النظامية - الهند. نشر: مؤسســة الأعلمي للمطبوعات بــيروت - لبنان. الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ-١٩٧١م.

٢٥. لفتة الكبد في نصيحة الولد. لابن الجوزي. تحقيق: أشرف بن عبدالمقصود أبو محمد. نشر: مكتبة الإمام البخاري. سنة النشر: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢٦. مجلة الدعوة، العدد الخاص عن الشيخ - بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٢٧. مجموع الفتاوى. لابــن تيمية الحراني. تحقيــق: عبدالرحمن بن محمد بن قاســم. نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٢٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. لابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. نشر: دار الكتاب العربي-بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٢٩. المســتدرك عــلى الصحيحين. لأبي عبــدالله الحاكم. تحقيــق: مصطفى عبدالقــادر عطا. نــشر: دار الكتب العلمية-بــيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٣٠. المســتطرف في كل فن مستطرف. للأبشيهي. نشر: عالم الكتب-بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٣١. مسند الإمام أحمد بن حنبل. لأحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي. نشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٣٢. المطالب العالية بزوائد المســانيد الثمانية. لابن حجر العسقلاني. تحقيق: مجموعة من الباحثين في ١٧ رســالة جامعية. تنســيق: د.سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشَّــثري. نشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع-دار الغيث

للنشر والتوزيع. الطبعة: الأولى.

٣٣. معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس. تحقيق: عبدالســـلام محمد هارون. نشر: دار الفكر. عام النشر: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٣٤. ملحق (الأربعاء) الصادر عن جريدة المدينة ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٣٥. جريدة (الجزيرة)، الأعداد الصادرة أيام ٢٠-٢٣ / ١٠/ ١٤٢١هـ.

٣٦. مقال لمعـــالي الدكتور عبدالله التركـــي في مجلة الأربعـــاء (١٣) ، بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٣٧. مناقب الإمام أحمـــد. لابن الجوزي. تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحســـن التركي. نشر: دار هجر. الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ.

٣٨. ميـــزان الاعتدال في نقد الرجال. للذهبـــي. تحقيق: علي محمد البجاوي. نـــشر: دار المعرفـــة للطباعة والنـــشر، بيروت-لبنـــان. الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.

٣٩. الورع. لابـــن أبي الدنيا (المتوفى:٢٨١هـ). تحقيـــق: أبي عبدالله محمد بن حمد الحمود. نشر: الدار السلفية - الكويت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. لابن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. نشر: دار صادر-بيروت.



فهرس الموضوعات والفوائد

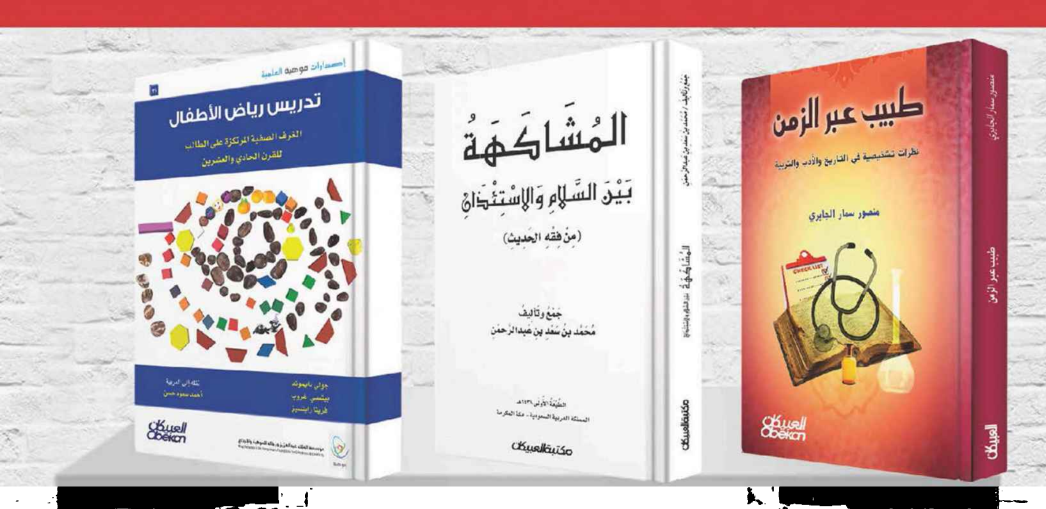


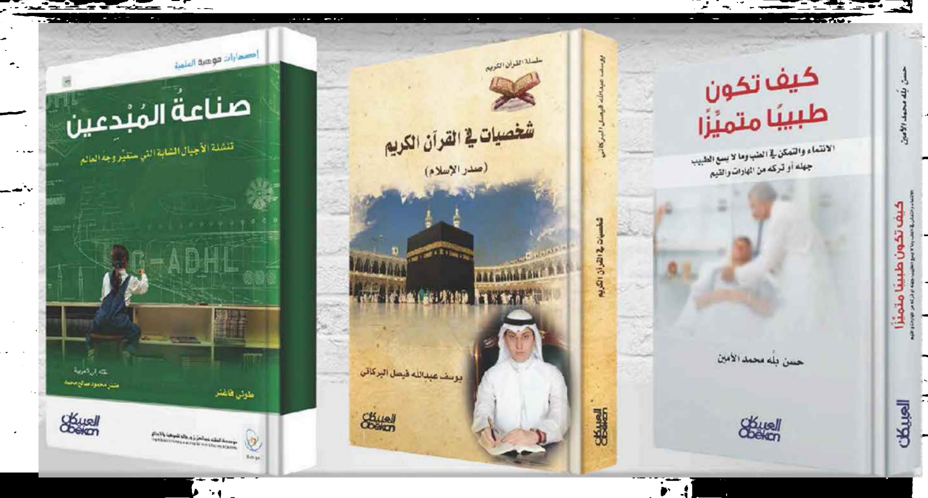






أحدث الإصدارات















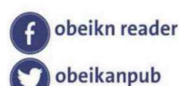






storytel

Follow Us





الأحداث والمتغيرات - بسخونتها - تلقي بظلالها على المجتمع بكافة أطيافه، فتؤثر فيهم، فربما اهتزت الصورة، أو اختل النظر لتلك الأحداث.. فجاءت هذه المقالات في مناسبات مختلفة، وموضوعات متفرقة، علّها أن تكون ظلاً يجد فيه القارئ الكريم ما ينقله من حرارة تلك الأحداث إلى «فيء» الكلمة الظليل.. تسقي شجرتها بآية محكمة، أو سنةٍ ماضية، أو حكمةٍ سائرة.



